

## ومضات من الادب العراقي في العصر الوسيط

١٢٥٨-١٨٠٠م - ٦٥٦-١٢٠٠هـ

الدكتور عبد الرحمن كريم اللامي

كلية التربية / ابن رشد

### التمهيد

هي تلك العصور التي جاءت بعد العصر العباسي حتى القرن التاسع عشر بعد النكسة التي ألمت بالعراق خاصة والأمة العربية عامة. بعد دخول التتر إلى بغداد عام ٦٥٦هـ/٢٥٨م وما رافق ذلك من قتل وخراب ودمار وزوال الحكم العربي العباسي من العراق وغيره من الأقاليم العربية والإسلامية على أيدي الغزاة التتر، وماتلاها من حكومات أجنبية استمرت قرابة سبعة قرون ، لاقى خلالها العراق وغيرها من بلاد العرب اقسى أنواع الظلم وأبشع أساليب التخريب، لقد كان من نتيجة استيلاء المغول وتعاقب الحكوات الأجنبية على العراق ، أن هبطت الحركة العلمية والأدبية في البلاد العربية عن مستواها في العصر العباسي ولاغرابه في ان تضعف الحركة العلمية والادبية ويخفت صوت الشعر وينتكدس النثر إلى أضعف درجاته، فقد كانت هذه العصور المتأخرة لانرى فيها حكماً على العراق غير الذين قذفت بهم مسارب الظلام من آفاق بعيدة، فجاءوا لايعرفون غير الرطانة الأعجمية، وليس في أدمغتهم خميرة من علم أو معرفة، ولا في نفوسهم ميل إلى العلم والمعرفة<sup>(١)</sup>.

فقد انتهى عصر عشاق الأدب من أمراء وخلفاء وغيرهم ممن كانوا يطلبون العلم ويتلذذون بسماع الشعر، ويطربون له، وكثيراً ماينظمون الأشعار، وبينما كان الشاعر والأديب يشتهر بقصيدة أو حكاية واحدة أصبح سلاطين المغول يهتمون بتدوين حسابات دولتهم وحصر الخرج والدخل وتدريب الجند، وقد اهتموا بالطب لحفظ الأبدان

والأمزجة، والنجوم لاختيار الأوقات، وكذلك كان الاهتمام بالعلوم الدينية، فقد التجأ الناس إليها هرباً من محن وكوارث، فاستمرت هذه العلوم واستطاعت ان تحافظ على مستواها ، وإن لم يكن ذلك المستوى الرفيع الذي تمتعت به أيام العباسيين (٢).

أما الأدب فلم يكن هناك من يهتم به ، ولم يكن هناك من يراعى المشتغلين به، فكيف يراعي الحكام الأدب والأدباء وهم لا يعرفون العربية، فمعظمهم أتراك ومغول ويتكلمون التركية وغيرها من اللغات ويلوون أسنتهم بالعربية ، فلا يستطيعون أن يلفظون بعض ألفاظها. وهكذا أصاب الأدب خمول وركود وطغى على القرائح ضعف وهمود ، وسيطر على الأذهان عجز وجمود ، واستولى على النفوس رعب وجمود، فلم تعد دولة الأدب تلك الدولة العظيمة، ولم يعد للشعر ذلك الميدان الواسع وتلك الثروة الكبرى، ولم نجد من الشعراء ذلك العدد الضخم الذي نعرفه في العصور السابقة، وإن وجد عدد منهم ، فلم تكن لهم تلك المنزلة الرفيعة، التي كانوا يستطيعون بها أن يفعلوا مايشاءون، لأن كلمتهم مسموعة عند الخليفة نفسه، ولم تعد تجري عليهم تلك العطاءات السخية والأموال الوفيرة، التي تغنيهم عن أي عمل للحصول على المال، وتوفر لهم أكثر القوت ، وخاصة بعد ان ربطهم الخليفة الناصر بالديوان العزيز فسموا (بشعراء الديوان) ، ورتب لهم المرتبات الدائمة، في حين أن شعراء العصور التالية لا يجدون حتى لقمة يسدون بها رمقهم إذا اتكلوا على الشعر وحدة ولم يشتغلوا بعمل آخر (٣).

أن الادب العربي في العراق استمر في أول العصر المغولي من حيث القوة متناقلاً على ضعف الحقه به فقدانه عنصر العروبة في الدولة الحاكمة، وقلّة الأدباء الناشئة عن تلاف فريق منهم تحت سيوف المغول، فالدولة الألخانية ما استعملت اللغة العربية إلا في أمور العراق وشيء من المراسلات مع الأقطار الإسلامية كمصر والشام، وقد حلت اللغة الفارسية واللغة المغولية مكان العربية في أكثر بلاد المشرق

العربي الإسلامي<sup>(٤)</sup>. أما حالة الأدب في العصر الجلائري. فقد شغل الناس عنها بأنفسهم ولم يلتفتوا إلى الأدب بسبب تزامم الكوارث والمصائب عليهم، وأن اللغة الفارسية والمغولية كادت تتغلب على العراق وتستولي على شؤونه الثقافية كافة، ومن ضمنها الأدب، وفي الوقت نفسه ضاق الخناق على العربية وآدابها، كما أزاحوا العرب عن السياسة ومقدرات المملكة، أما في العهد التركماني فقد كانت الحالة في ارتباك واضطراب بل ازداد التدهور لا عن طريق تأثير اللغة الفارسية وآدابها فحسب بل حدث أمر أكبر وهو توالي الحروب ونزوع الأمراء إلى التوسع في الحكم والغزو للمالك، وصار كل ملك أو أمير يحاول أن يكون صاحب الأمر، ولتحقيق آماله أو أغراضه سلب الأهلين ما عندهم، وضيق كثيرا عليهم، فأشغل الأمة بنفسها، وما يجدي العلم إذ لم يستطع دفع الملمات أو درء المفاسد والفتن، وهكذا توالى المصائب من كل جانب، فأصاب الشعر الخمول والخمود<sup>(٥)</sup>، وتميز العصر العثماني بتدهور الأدب وضعفه وعجزه عن اللحاق بالعصور المتأخرة مع تخلفها وفقرها، وقد اقترن التدهور والضعف بتوسع نفوذ اللغة الفارسية بتأثير الصفويين، واستمرار الغزو اللغوي التركي، الذي بدأ من العصر المغولي ثم تغلغل في الميادين الإدارية والاجتماعية، وبعد الاحتلال العثماني حتى أن الموجة التركية العثمانية نجحت في وقت مبكر في تخريج أجيال من الشعراء والأدباء والمؤلفين العراقيين، يقرضون الشعر ويكتبون النثر بالتركية الأدرية، فكان لهم فضل وضع أسس دعائم الأدب التركي، والتمهيد لمستقبله الفني واللغوي<sup>(٦)</sup>، وزيادة على ما تقدم من جهات نظر، أن حالة السقوط والتردي الثقافي والأدبي، التي تعرض لها العراق أثناء الحكم الأجنبي، لاتعني ضياع كل شيء من تراثنا الفكري والأدبي، ونضوب القرائح وضمحلل عناصر الخلق والإبداع من ضمير الشعب العربي، فقد دخل في صراع خفي وصريح في آن واحد ضد أعدائه، وحافظ على شخصيته الحضارية بين أمم الأرض، كما أنه عمل المستحيل للتمسك بالبقية الباقية من

الدكتور عبد الرحمن كريم اللامي

بمضات من الادب العراقي في العصر الوسيط ١٢٥٨-١٨٠٠م - ٦٥٦-١٢٠٠هـ

التراث الفكري، الذي سلم من أيدي الغزاة العتاة، فالثقافة العربية الإسلامية في العراق لم تتعرض بانقراض الدولة العباسية، وإنما ظلت سائرة ببطيء شديد<sup>(٧)</sup>، ساهمت عدة عوامل في استدامة وبقاء الأدب والثقافة العربية في بلاد الرافدين نذكر من أهمها:

أولاً: إن أكثر الموظفين والعمال في العصر المغولي بإدارة العراق كانوا من العرب الذين خدموا الدولة العباسية ومن ابنائهم ومن غيرهم من أهل العراق، وكان ميلهم إلى الأدب العربي طبيعياً، ونتيجة لطبيعة أذواقهم كان جماعة منهم يتعاطون الادب ويقرضون الشعر، كفخر الدين مظفر ابن الطرماح الذي قتل سنة ٦٩٣هـ ومن شعره ماقاله وهو مسجون بدار النيابة ببغداد قبل أن يقتل بأيام:

القول فيما مضى من عمرنا هدر

فدعه واصبر لما يأتي من القدر

واستشعر الصبر إن نابتك نائبة

والصبر أجمل ما حلى به البشر

ولا ترعك من الأيام منقصة

فشيمة الدهر في أبنائه الغير

## وكل حادثة في الدهر هينة

إذا غدى سالما في طيها العمر

وقد كان عدد من الولاة الذين حكموا العراق في عهد هذه الدولة قد تنفقوا بثقافة الدولة العربية الإسلامية، وفي الأدب خاصة واعتادوا الكتابة فيها ورصعوا رسائلهم بجوامع الكلم العربي وكان أكثر شعرائهم يفضلون النظم بالعربية، على النظم بالفارسية والمغولية، وقد بقيت العربية صامدة بالعهد المغولي والجلاتري رغم تغير الأوضاع السياسية.

ثانياً: الوقوف ، وتسمى اليوم الأوقاف، فإن وقوف المسلمين على المساجد والمعاهد الدينية والمدارس والرُّبُط وعلى الزوايا ودور القرآن الكريم بقيت على حالها وعلى شروط واقفيها، واستمرت الموقوفات الدينية على طرائقها في حماية علوم الدين والفنون اللسانية ورعاية الفقهاء والمدرسين والمتصوفة والأدباء . ومن هؤلاء الأدباء من كانوا يقيمون في المجالس والمساجد ويعلمون الأدب والشعر فيها، وقد ساهم عدد من المشايخ والوجاء في المحافظة على هذه المراكز الثقافية من العابثين فأمدت في عمر الأدب والثقافة العربية ولو إلى بعد حين.

ثالثاً: الذوق الشعبي، ويكاد يكون عاماً في كل شعب عربي، وهو الذي تعاقبت الدهور على تربيته وتهذيبه وأحكم القرآن الكريم واللغة العربية أصله . وتضافرت طرائق التأديب والتدريب والتعليم والتنقيف على تنميته، ولذلك لم يكن ميسوراً تحول الذوق عما نشأ عليه الا بعد زمان طويل جداً. ولقوة هذا الذوق الذي كان حظ الشعر منه أوفر من النثر ، كانت مناسبات الأشعار

كثيرة التجديد فكان الهجاء في بغداد مثلاً يذهب كل مذهب و يقيم الولاة ويقعدهم.

رابعاً: وجود بعض العائلات والأسر العلمية والأدبية والمرتبطين بهم والمقتدين بهم وأصحابهم وحاشيتهم الذين رعوا العلم والأدب، فكانوا يشجعون المؤلفين والشعراء والأدباء ويكرمونهم، وقد وردت أسماء تلك الأسر متناثرة في المراجع التاريخية والأدبية ، ومن أشهر هذه الأسر أسرة بني الجويني الذين كان لهم إقبال على الأدب العربي في العراق يفوق التصور ، فكانوا يكرمون الشعراء والمؤلفين من العراقيين، وكانوا يمتنون بصلة الانتساب إلى الفضل بن الربيع الوزير العباسي المعروف، فقد تكاثر على أبوابهم عدد من أدباء الأقطار العربية، فانتجعوا مراتبهم واستنفذوا منابعهم وأوردوها في الشعر الجيد ، وركبوا اليهم من الأقطار العربية البعيدة طمعاً في نيل أعطيائهم، فكان أن ازدهرت الحياة الأدبية على أيديهم في العراق<sup>(٨)</sup>.

خامساً: حرية الأدباء والشعراء في برهة الخضرمة بين الدولتين العباسية والمغولية ، فقد أتاحت تلك الحقبة الزمنية التي ضعفت فيها الرقابة على الأدباء والشعراء من قبل الحكام بسبب انشغالهم في المنازعات والخلافات، أن تنطلق قرائح الشعراء والكتاب من قيودها، انطلق الشعراء يعبرون في نقد الحياة السياسية والاجتماعية بدون خوف، وأخذوا ينظمون بالخلاعة والسفاهة والتصريح بالفسوق دونما رقابة، وقد أساء جماعة من الأدباء بسبب هذه الحرية الأدبية وجاءوا بأقوال وأشعار تنافي الشرع وتنافي الأخلاق وتتجاوز على حرمان المعتقدات، وقد استفاد عدد من المؤلفين والكتاب من هذا الجو ، فالفوا عدداً من الكتب أطلقوا العنان فيها لأقلامهم نتيجة لفقدان الرقابة والمضايقة والمتابعة من قبل الولاة والحكام ، فجاء أدب غزير ، ولو لا تلك الحرية ما قدر صفي

الدين الحلي، أن يناقض قصيدة ابن المعتز التي ادعى فيها لجده العباس بن عبدالمطلب وراثة النبي (6) بدلاً من العلويين، والتي قال فيها يخاطب العلويين

:

ونحن ورثنا ثياب النبي	فكم تجذبون بأهدابها
لكم رحم يابني بنتهة	ولكن بنو العم أولى بها
قتلنا أمية في دارها	ونحن أحق بأسلابها

فقال صفي الدين الحلي يناقضه ولو بعد وقت طويل:

ألا قل لشر عبيد إلهه	وطاغي قريش وكذابها
وياغي العباد وياغي العناد	وهاجي الكرام ومغتابها
أنت تفاخر آل النبي	وتجدها فضل أحسابها
بكم بأهل المصطفى أم بهم	فرد العداة بأوصابها
وعندك لاتورث الأنبياء	فكيف حظيتم بأثوابها (٩)

سادساً: الغناء : من البداهة أن الغناء يعتمد على الشعر، فلذلك كان الغناء من أقوبأسباب الرغبة بالنظم والإجادة فيه، ونشأت في هذا العصر بالعراق شريحة اجتماعية عالجت الغناء والأدب والموسيقى معاً، ومنهم من أضاف إليها فنوناً أخرى، كالخط والزخرف، وبرز عدد قد مهر في الشعر والموسيقى والأدب عامة، وظهرت مؤلفات في الموسيقى وأنواع الشعر المغنى، من أشهرهم صفي الدين بن عبد المؤمن الأرومي مؤلف رسالة الأدوار في الموسيقى وجمال الدين ياقوت المستعصي الشاعر والخطاط والموسيقار ومن غنائه على لحن السكاه:

عليك الشوق فيك متى يصح

وسكران بحبك كيف يصح

وأعجب ما يكون له شفاء

فؤاد من لحاظك فيه جرح

وبين القلب والسلولان حرب

وبين الجفن والعبرات صلح

فرحت بحبكم يا صاح جهلاً

وكم جلب السقام علي مزح

سابعاً: المدن التي سلمت من تدمير واحتلال المغول: بعد أن فقدت بغداد مكانتها الثقافية والأدبية على أثر الاحتلال المغولي وما تلاها من احتلالات أجنبية، وما رافق ذلك من قتل وتشريد اعداد هائلة من أدباء وعلماء وشعراء، برزت مدن ومراكز ثقافية وحضارية أخرى سدت الثغرة التي ولدتها الأحداث النازلة في بغداد ومن أشهرها:

مدينة الحلة التي أسسها بنو أسد منذ مطلع القرن الخامس الهجري، فقد احتضنت العلم والأدب والشعر منذ تأسيسها لغلبة الصبغة العربية عليها، وقد لجأ إليها عدد كبير من أدباء وعلماء بغداد بعد الكارثة، وكان لسلامتها من سيوف المغول أثر حسن في اتصال سيرتها الأدبية واستمرارها على أحسن أحوالها، ومن أشهر أدبائها صفي الدين الحلي، ومهذب الدين الشيباني وعشرات آخرون (١٠).

وقد شهدت البصرة انتعاشاً أدبياً مدة حكم أسرة آل أفراسياب ١٠٠٥-١٠٧٨ هـ ١٥٩٦-١٦٦٧م شبه المستقل لولايه البصرة في العصر العثماني الأول وأصبحت من أكبر مراكز الأدب والثقافة العربية بفضل هذه الأسرة التي رعت الأدباء العرب لأسناد سياستها الاستقلالية المناهضة للعثمانيين. وانتعشت الحركة الثقافية في الموصل طيلة حكم الجليليين الذي بدأ في أواخر العصر العثماني.

وقدمت مدينة الحويزة ومدن إقليم الأحواز الأخرى، خدمة عظيمة للعلم والآداب بعد قيام حكم إمارة المشعشين في منتصف القرن التاسع الهجري منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، وقد أنجبت العديد من الشعراء والأدباء والعلماء. وساهمت مدن عراقية أخرى تتمتع بمكانة دينية في الحفاظ على الأدب والعلم في العراق مثل مدن النجف وكربلاء. أن هذه المراكز الأدبية والثقافية والحضارية (الحلة، الموصل، البصرة، الحويزة، النجف، كربلاء) ضمنت لنا الاتصال بعصور الأدب العربي، أيام ازدهاره وحفظت لنا تراثنا الأدبي والفكري من الضياع وأبقت على عنصر الحياة فيه حتى عصر النهضة الحديثة، ففضلها لم ينقرض الأدب العربي ولم تتطفئ شعلته، ولكنها كانت بصيصاً

ضئيلاً في وسط محيط دامس ، أخذت حزمة ضوئه تتسع شيئاً فشيئاً حتى اتصلت بعصر النهضة الحديثة<sup>(١)</sup>.

### أسباب وعوامل ضعف الأدب العربي في العصر الوسيط

يرجح الباحثون أن الأدب العربي منذ سقوط بغداد على أيدي النتر لايرقى إلى مستوى العصور السابقة ولا إلى العصر الحديث، وأنه لم يضيف فنونا وأنواعاً ذات قيمة فنية كبيرة، ولم يوفق إلى تطوير أو تغيير خطير، ولم ينجب شخصيات أدبية ترقى إلى العبقريات التي ظهرت في العصر العباسي ، وتشخص ظاهرة التخلف في الأدب العربي في العصر المغولي والعصور التي تلتها حتى نهاية العصر العثماني لعدة أسباب أهمها:

١- غلبة العنصر الأعجمي على مقاليد السلطة والنفوذ في العراق وأقطار عربية أخرى قروناً طويلة، وتعصبهم لثقافتهم واتجاههم إلى الكتابة بلغتهم تعصبا لها بعد ان كانوا يكتبون باللغة العربية، فقد خسر الأدب تشجيع ولاة الأمور وأصحاب السلطة كونهم لايسندون اللغة العربية وفنونها، بسبب جهلهم بها وبدلاً عن ذلك فقد سادت اللغة العامية، وظهرت في إطارها أنواعاً من الفنون الأدبية الشعبية التي خرجت على أصول البيان العربي.

٢- انحسار النشاط الفكري والثقافي الذي استفحل وتطور في العصر العباسي ولم يظهر في هذه العصور المتأخرة على حيز الواقع من يأخذ بأيدي رواد الفكر والثقافة ويشجعهم على التجديد والابتكار فجمدت العقول وجفت القرائح.

- ٣- الهجمات العسكرية الأجنبية المتتالية عبر حقب طويلة ومايرافقها من تخريب وتقتيل لجذور العلم والثقافة والعلماء.
- ٤- توسيع وانتشار العصبية القبلية والمذهبية والطائفية التي كانت دائماً تدخل المجتمع في صراعات ونزاعات واقتتال يفتقد فيه الجانب الأمني والاطمئنان والهدوء والأجواء الملائمة للابداع الفني والأدبي.
- ٥- هبوط معنويات العلماء والأدباء والشعراء وفتور طموحهم وانحدارهم إلى حالات نفسية منهارة أدت إلى إقفال باب التطور والتجديد والاجتهاد<sup>(١٢)</sup>.

### أغراض الشعر في العصر الوسيط

ان الادب العربي استمر في العراق والأقطار العربية في هذه العصور، لكن دونما كان عليه في عصور الازدهار الثقافي، فالثقافة العربية الإسلامية لم تتقرض بانقراض الدولة العباسية، وإنما ظلت سائرة في طريقها في أروقة المساجد وحلقات المدارس الدينية، للأسباب التي ذكرناها آنفاً والتي ساهمت في ديمومة الأدب العربي وبقائه حتى العصر الحديث، ولقد كانت مرتكزات الثقافة الأدبية في تلك الحقب متينة وصلبة، لأنها اعتمدت على التراث العربي الإسلامي في أيام ازدهاره، وعصور تفوقه، فقد انكب طلاب الأدب والثقافة العربية على كتب المتقدمين في مختلف فنون العلم والأدب والمعرفة، فاستوعبوها وتأثروا بها وتمكنوا منها وانبروا يؤلفون على منوالها ويفتقون آثارها. فأحسنوا الصنعة وأتقنوا التقليد، رغم مظاهر الجمود الثقافي والتخلف العلمي التي أحاطت بهم واستحكام العجمة وتسلط الأجنبي.

واستمرت أغراض الشعر العربي على حالها، ولكنها اعتمدت التقليد وسبل الأقدمين، وقد ازدهرت بعض الفنون وكثر النظم فيها وزاد الاهتمام بها، بينما اضمحلت فنون أخرى، وقد لايرد لها ذكر عند طائفة من الشعراء، زيادة على ذلك نجد عدداً من

الشعراء والأدباء نبغ وأجاد في غرض أو غرضين أكثر من الأغراض الأخرى، بينما أجاد آخرون في مختلف الأغراض بصورة متوازنة دون تغليب غرض على آخر ، مع اعتبار فوارق الزمان والمكان بين الأقاليم العربية، واختلاف الظروف السياسية، وطول هذه الحقبة التي بلغت سبعة قرون تقريباً، ومن أهم الأغراض التقليدية التي استمرت في مسيرة الشعر العربي حتى العصر الحديث هي:

١- المديح : وهو أكثر الأغراض الشعرية اتساعاً، وديوان المديح أكثر دواوين الشعر العربي وأضخمها، بل لعله يفوق كثرة ما قيل في الغزل والنسيب والفتون الأخرى ، وطابعه هو الطابع العربي الإسلامي ، فاتخذت المثل العربية الإسلامية أساساً للثناء والإطراء. ويقدر ما كان الشاعر يسمو نحو الشمائل السامية ويتمسك بالنزعة الإنسانية فيكبر الأعمال الفذة ، ويثني على الإنجازات الصالحة، كان ينحدر إلى درك التقرب والزلقى للحصول على المنافع الذاتية والمصالح الفردية الضيقة، فيلقي الكلام جزافاً طمعاً في مال أو جاه أو منصب، فنزل المديح الذي كان على رأس أغراض الشعر وموضوعاته فيما سبق من العصور عن منزلته القديمة، لقلة اهتمام الشعراء المجيدين به ، وقلة المحترفين للمديح لضعف الجائزة وقلة العطاء، ولكن بقي المديح بالأعمال الباهرة والانتصارات العسكرية والمديح للأصدقاء والزملاء من الفضلاء ومن اعيان الرجال والأدباء لا لقصد الحصول على المال بل للوفاء والتعبير عن مشاعر الود ، وفي أثناء تقصي جوانب هذا الفن فقد وجد أنه ينقسم من الناحية الموضوعية إلى ثلاثة أقسام:

أ- المديح الديني: تبلور هذا النوع من الشعر مع مولد الرسالة الإسلامية السمحاء، وكان في عصر الرسول(6) صدر الإسلام شعراً عقائدياً

سياسيا ولدته ظروف قيام الإسلام نظام الهي يصارع الأعراف الجاهلية المقيتة ، فكان الإسلام بحاجة إلى مدافعين بالسيف واللسان لأهمية الكلمة وسحر البيان عند العرب، فانبهرى عدد من الشعراء المسلمين ينافحون عن العقيدة الإسلامية ومثلها العليا، وينالون من الشرك وأهله، وكانت شخصية الرسول القائد المفعممة بالخلال النادرة بالسلم والحرب بحراً زاخراً يغترف منه الشعراء أفكار البطولة والفروسية والصبر والخلق الرفيع والتضحية، وقد استمر المديح الديني في هذا النطاق حتى ترسخ الإسلام وانتشر شرقاً وغرباً ، وفي العصور التالية اتجه الشعر الديني إلى تمجيد الباري(I) بما هو أهله ، وطلب العفو والمغفرة وخير الدنيا وحسن ثواب الآخرة، وذكر نعمه التي لا تحصى، أما الرسول الكريم(6) فقد ذهب الشعر إلى إطرء شمائله وفضائله ومزاياه ونسبة وكرمه وشجاعته وفصاحته وبلاغته ودقائق سلوكه ومعجزاته وشفاعته ومقامه عند ربه، ويأتي بعد الرسول(6) مدح أهل بيته فيثني على مناقبهم وفضائلهم، ثم يأتي مدح صحابة الرسول الأخيار، كل ذلك رجاء الشفاعة عند الله(I)، وقلما نجد في العصور الإسلامية شاعراً لم يأت بشيء من الشعر الديني وفق هذا السياق.

ولقد اتسمت المدائح النبوية في العصر الوسيط بالغلو والخروج على صور المدائح النبوية في العصور المتقدمة، وجاء في بعض تلك المدائح (لولا محمد ماظهرت شمس ولاقمر ولانجوم ولاأنهار ولا أثمار ولاشجر ولا بدر ولا جبال ولاغير ذلك من المبالغات ... ) واتخذ المديح الديني في العصور الأخيرة قالباً جامداً اقتصر على البحر البسيط وروي الميم، وعلى استعراض الشاعر لفنون البديع من ثنايا ألفاظ ترصف ، ظاهرها

مدح الرسول(6)وهي التي تدعى البديعيات. وأول من فتح باب المدائح النبوية وفق هذا الأسلوب هو البوصيري المتوفي ٦٥٦هـ/١٢٩٦م وخاصة في قصيدته المشهورة بالبردة . ولولا ما أحاط البوصيري ذاته في تلك القصيدة من تعظيم وتقديس لما نالت من الشهرة مانالت.

لقد عبر عن حالته النفسية، حال نظمه هذه القصيدة وما جاءت من أحلام وأفكار غيبية أحاطت القصيدة بصور الأحرار، وعدد أبيات بردة البوصيري مائة واثنان وثمانون بيتاً، جاءت على روي الميم، ونظمت على وزن البحر البسيط، ودارت معانيها حسب الترتيب التالي: النسب ثم التحذير من هوى النفس ثم مدح النبي والكلام عن مولده ومعجزاته ثم الحديث عن القرآن الكريم والإسراء والمعراج والجهاد وانتهت القصيدة بالتوسل والمناجاة.

أما أثر البردة في اللغة والأدب فكبير، ذلك أن هذه القصيدة بما رافقها من أخبار وروايات وأحلام أثرت في جمهور المسلمين ، فحفظها الناس ورووها وحفظوها أبناءهم وأحفادهم وقرأوها بالمناسبة المفرحة والمحزنة، وأثرت في حركة التأليف، فكثر شارحوها والمتأثرون بها ، وبهذه الشروح والتعليقات أوجدت ملاحظات علمية ولغوية قيمة ، ما كانت تحصل لولا وجود القصيدة، وأثرت في الدراسات التاريخية، حيث أظهر المؤلفون ماتضمنته من إشارات دينية وتاريخية وأثرت في الحركة الأدبية ، فكثر تشطيرها وتصنيفها وتخميسها وتسييعها وتعشيرها ومعارضتها وأوجدت فناً جديداً باسم البديعيات، وقد افتتن عدد من الشعراء بقصيدة البردة فعارضوها بقصائد على بحرها وقافيتها وتضمنت معظم أفكارها، ومن أشهر الشعراء الذين عارضوها صفي الدين الحلي المتوفي ٧٥٠هـ ببديعته المسماة الكافية البديعية في المداح النبوية (١٣).

إن جئت سلماً فسل عن جيزة العلم

واقر السلام على عرب بذي سلم

وعارضها ابن جابر الأندلسي ت ٧٨٠هـ ببديعته أو قصيدته التي مطلعها<sup>(١٤)</sup>:

بطيبة انزل وبمم سيد الامم وانشر له المدح وانثر أطيب الكلم

وعارضها عز الدين الموصلبي ببديعته، وأعقبه ابن حجة الحموي، وتلاه ابن المقرئ، وتلاه السيوطي، وجاءت عائشة الباعونية، وأبو الوفاء بن عمر ، والفرضي، وعبدالهادي الأبياري، وطاهر الجزائري، وابن خير الله الخطيب ، وعبد الغني النابلسي، وقاسم بن محمد الحلبي ، وصدر الدين الحسني، وغيرهم آخرون فنظموا بديعيات على غرار بديعية البوصيري<sup>(١٥)</sup>.

لكن مجموع الشعر الذي مدح به الرسول الأعظم(6) عدا البديعيات تميز بالقوة والجزالة وحرارة العاطفة وجودة السبك والأداء وتمرد على الضعف الذي استولى على بقية الفنون الأخرى.

من ذلك قول علي بن خلف الحويزي (ت ١٠٨٨هـ) مناجياً ومتوسلاً إلى الباري(I)سعة عطفه وكثرة عطائه وقدرته على دفع عظام المصائب والنوازل:

الهي ياذا المجد والجود والعللا

وياصاحب الإحسان والفضل والعطا

وياعالم بالسر والجهر والخفا

وياسامعاً همس المناجي إذا دعا

أقلني أقلني عثرتي وامحو زلتي

الهي وخلصني من الهم والأذى

الهي لئن قصرت في شكر نعمة

فعفوك أرجى ما يدل به الفتى (١٦)

قال شهاب الدين الموسوي (ت ١٠٧٨هـ) مادحاً الرسول(6) مستهلاً قصيدته بذكر الديار الحجازية وحبها وتعلقه بها، وتناول شخصية الرسول الأعظم(6) فذكر أنه خير النبيين وهو ما نطق به كتب السماء التوراة والإنجيل والقرآن ، وأنه ملجأ الناس ومغيث المستصرخ وأمان الخائف وسر حكمة الله ولطفه وبه ظهر التوحيد وانقرض الشرك وأن الشريعة نسخت جميع ما جاءت به الشرائع السابقة فهي شريعة متكاملة.

هذا العقيق وتلك شمم رعانه

فامزج لجين الدمع من عقيانه

واشمم عبير ترابه والشم حصي

في سفحه انتثرت عقود جمانه

الدكتور عبد الرحمن كريم اللامي

بمضات من الادب العراقي في العصر الوسيط ١٢٥٨-١٨٠٠م - ٦٥٦-١٢٠٠هـ

---

لم ألق قبل العشق ناراً أحرقت

بشراً وحب المصطفى بجنانه

خير النبيين الذي نطقت به

التوراة والإنجيل قبل أوانه

كهف الوري غيث الصريخ معاذه

وكفيل نجدته وحصن أمانه

المنطق الصخر الأصم بكفه

والمخرس البلغاء في تبيانته

لطف الإله وسر حكيمته الذي

قد ضاق صدر الغيث عن كتمانته

الدكتور عبد الرحمن كريم اللامي

بمضات من الادب العراقي في العصر الوسيط ١٢٥٨-١٨٠٠م - ٦٥٦-١٢٠٠هـ

---

نور بدا فأبان عن فلق الهدى

وجلا الضلالة في سنى برهانه

شهدت حواميم الكتاب بفضله

وكفى به فخراً على أقرانه

سل عنه ياسينا وطه والضحي

إن كنت لم تعلم حقيقة شأنه (١٧)

اما قصيدة البردة لمحمد بن سعيد بن حماد الملقب بالبوصيري ٦٠٨-٦٩٥ فمنها:

أمن تذكر جيران بذى سلم

مزجت دمعاً جرى من مقلّةٍ بدم

محمد سيد الكونين والتقليد

ن والفريقين من عرب ومن عجم

الدكتور عبد الرحمن كريم اللامي

بمضات من الادب العراقي في العصر الوسيط ١٢٥٨-١٨٠٠م - ٦٥٦-١٢٠٠هـ

---

نبينا الأمر الناهي فلا احد

براً في قولٍ لامنّةً ولانعم

هو الحبيبُ الذي ترجى شفاعته

لكل هول من الأهوال مقـتحم

دعا إلى الله فالمستمسكون به

مستمسكون بحبلٍ غير منقسم

فاق النبيين في خلق وفي خلق

ولم يدانوه في علم ولاكرم

وكلهم من رسول الله ملتمس

غرفا من البحر أو رشفا من الغديم

وواقفون لذيته عند حدهم

من نقطة العلم أو من شكلة الحكم

فهو الذي تم معناه وصورته

ثم اصطفاه حبيباً بارئ النسم

منزه عن شريك في محاسنه

فجوهر الحسن فيه غير منقسم

وانسب إلى ذاته ماشئت من شرف

وانسب إلى قدره ماشئت من عظم

فإن فضل رسول الله ليس له

حد فيعرب عنه ناطق بقم<sup>(١٨)</sup>

ب- المديح العام: وشمل مديح الحكام والأمراء والآخرين: تناول فيه الشعراء الثناء والإطراء على نسب الحاكم والأمير وسيرته الذاتية وسجاياه الاجتماعية وسياسته في الحكم ومعالجة شؤون الدولة والمجتمع وحروبه وغزواته والمعارك التي خاضها، وتذكر هذه الأمور مجتمعة في قصيدة واحدة أو في قصائد عدة، فإن كان الممدوح علويًا، فهو نجل الكرام الغر الميامين محمد وآله، وبكفيه هذا فخراً عما سواه، فقد سما وساد أجداده على العرب الأوائل والأواخر، فالحاكم العلوي تحدر من الأصلاب الزكية وخالصة أبناء الكرام، فقد حكم البلاد للفضل الذي ورثه عن الرسول(6) من ذلك قول شهاب الدين الموسوي أبي معتوق في مدح أحد سلاطين زمانه:

من القوم الذين سمو وسادوا

على العرب الأوائل والأواخر

ملوك كالملائك في التلاقي

عفاريت جيادهم السعالي (١٩)

وله أيضاً في مدح علوي آخر:

فهو ابن من ساد الأنام بفضلـه

خلف الكرام الغر من أبنائه

من آل حيدرة الأولى ورثوا العُلا

من هاشم والضرب في هيجائه

آل الرسول ورهطه أسباطه

أرحامه الأذنون أهل عبائه

نسب إذا ما خُطِـت مداده

ماء الحياة يفيض في ظلمائه (٢٠)

وان كان الممدوح غير علوي فهو من العرب الفرسان، الذين أذابوا الراسيات بعزمهم،  
والذين تقدموا على الدنيا كلها بكرمهم ، ليوث في النزال بحار زواجر في العطاء،  
يسوسون الناس بالحنكة والدهاء، يترفعون عن الذل، ويجاهدون العدوان، محاطون  
بالأنفة والكبرياء، من ذلك قول ابن رحمة الحويزي من شعراء القرن السابع عشر في  
علي باشا والي البصرة:

شوس غطاريف صيد لو يروم بهم

نسف الشوامخ لم يشكل ولم ينب

من كل أروع قد نيطت حمائله

في جيد وردٍ إلى الهيجاء منتسب (٢١)

ومثله قول أبي معتوق الموسوي في هذا الأمير:

قريب من المعروف تدعوه شيمه

بها عرفت آباؤه وجود

سحاب به تحمي النفوس إذا همى

وينبت في روض الحديد جلود

همام إذا لاقى العدا وهو وحده

يصيد أسود الجيش وهو عديد

من الطعن يحمي العُرض عن جنة الندى

وللمال في سيف النوال ييدُ (٢٢)

وشبيه بذلك مدائح صفي الدين الحلبي في القرن السابع الهجري لحكام ماردين وديار بكر الارتقيين وحكام مصر من المماليك أمثال ابن قلاوون قال يمدح أحد أرباب دولة بن قلاوون في قصيدة يعارض بها قصيدة المتنبّي التي مطلعها:  
بأبي الشموس الجانحات غواربا

اللابسات من الحرير جلابيا (٢٣)

فقال الحلبي وقد بدأ قصيدته في المقدمة الغزلية فقال:

أسبلنا من فوق النهود ذوائباً

فجعلن حبات القلوب ذوائباً

وجلون من صبغ الوجوه اشعة

غادرن فود الليل منها شأباً

بيض دعاهن الغبي كوعباً

ولو استبان الرشـد قال كواكبـا

حتى إذا وصل إلى المديح راح يحشر الصفات متلاحقة والتشبيهات متراكمة كأنه في  
زحمة من أمره كل همه أن يحشدها فلا يترك واحدة منها:

ملك يرى تعب المكارم راحة

ويعد راحات القراع متاعبـا

بمكارم تذر السباب أبحراً

وعزائم تذر البحار سبابـا

لم تخل أرضٍ من ثناه وأن خلت

من ذكره ملئت قنأً وقواضبـا

ترجى مواهبه ويرهب بطشه

مثل الزمان مسالماً ومحارباً

فإذا سطا ملاً القلوب مهابة

وإذا سخا ملاً العيون مواهباً (٢٤)

ووجدت أنواع أخرى من المديح يحصل بين الولد والوالد إذا كان أحدهما شاعر، أو بين شاعر وشاعر أو بين شاعر وعالم أو بين شاعر وأصدقائه، ومهما كانت الجهة التي يوجه إليها مديح الشاعر، فإنه تحميد للفضائل وتكريم للشمائل النبيلة، التي تهز عواطف الشاعر وتأخذ بلبه فيثني عليها بما تجود به قريحته، وقد يكون صادقاً بتعبيره أو متصنعاً، تبعاً لنوع العلاقة وقوة التأثير بين المادح والممدوح، والأمثلة كثيرة في هذا الباب، من بينها قول فرج الله التستري يمدح أحمد صدر الدين ابن معصوم والد صاحب السلامة (ابن معصوم):

الأحمد المحمود كل فعاله

ما شاءه وقضي به فقضاء

وما للعقول فوق ساحة وصفه

قد ظلمت الأفهام والآراء

فله يد وله أنامل فعلها

الأنعام والاحسان والأعطاء

يا أيها الشهم المؤمل بابه

يامن له الأحكام كيف يشاءُ

كنا نضاء بكل ضوء فاختفت

لما بدوت بضوءك الأضواء (٢٥)

والخلاصة : أن معاني المديح في هذه الحقبة لم يطرأ عليها جديد، وأن الشعراء المداحين كانوا عالة على الأسلاف القدماء من الفحول، ولم يكونوا ناجحين في تقليدهم والإفادة من شكل أدائهم الفني فحسب، وإنما كانوا محدودين في نظراتهم مشلولين في إبداعهم، وكان شعرهم يتدنى ويسف كلما تقدم الزمن، وابتعدت الشقة بينهم وبين من سبقوهم، حتى بلغ المنحنى الشعري أدنى مستوى في انحداره في أوائل وأواسط العصر العثماني.

-٢-

الرتاء : هو فن اصيل في أدبنا العربي، ذكرت له تعاريف عديدة من أهمها: هو بكاء الميت وتعداد حسناته بالشعر والنثر. وثمة رأي يرى أن لشعر الرثاء ألوانا ثلاثة هي : الندب والتأبين والعزاء أما الندب فبكاء الأهل والأقارب حين يعصف بهم الموت والشاعر لا يندب نفسه وأهله فحسب ، بل يندب أيضاً من ينزل منه منزلة النفس والأهل ممن يحبهم ويؤثرهم. والتأبين هو أدنى إلى الثناء منه إلى الحزن الخالص. والعزاء مرتبة عقلية فوق مرتبة التأبين، إذ نرى الشاعر ينفذ من حادثة الموت الفردية التي هو بصدها إلى التفكير في حقيقة الموت والحياة، وقد ينتهي به هذا إلى معان فلسفية عميقة، ورثاء هذه العصور التي ندرسها في واقع الحال لا يخرج عن مضامين هذه الألوان والمعاني. والظاهرة البرازة في شعر الرثاء لهذه الحقبة هو بكاء على الدول البائدة والمدن الزائلة والنكبات الهائلة التي أخذت حيزاً كبيراً من شعر الرثاء، وتناول شعراء هذا اللون من الأدب فأكثروا من النظم فيه، ولم يتركوا صغيرة ولا كبيرة إلا نظموها فيها شعراً.

الدكتور عبد الرحمن كريم اللامي

بمضات من الادب العراقي في العصر الوسيط ١٢٥٨-١٨٠٠م - ٦٥٦-١٢٠٠هـ

وقد كثرت الحروب والنكبات في بلادهم ، فحينما اضطرت الحرب بين العرب والأفرنج على ساحة فلسطين ، وراح الأفرنج ينهشون اجزاءها ، وبلغ بهم الامر أن استولوا على معظم سواحل بلاد الشام، وسقطت مدينة القدس في أيديهم، ووصل الزحف إلى مصر، واحتلوا مدينة دمياط وعاثوا في البلاد فسادا، وقتلوا من خلقها العدد الكبير، فاضت قرائح الشعراء برثاء تلك المدن، واكثروا من النوح عليها، واستحثوا السلاطين وكل من في قلبه ايمان ودين، ومن في عروقه دم عربي أبي، إلى الأخذ بالثأر والاستعداد للنضال والجهاد ، ومزجوا ذلك كله بالصبغة الدينية والروح الإسلامية . فهذا أبو يوسف شهاب الدين يعقوب ابن مجاور ( ت ٦٠١هـ) يبكي مدينة القدس ويدعو للأخذ بالثأر من المعتدين الأوربيين في قصيدة ترقى إلى تائية دعبل الخزاعي في رثاء اهل البيت .

أعيني لاترقي من العبرات

صل في البكا الأصال بالبكرات

على المسجد الأقصى الذي جل قدره

على مواطن الإخبات والصلوات

على منزل الاملاك والوحي والهدى

على مشهد الابدال والبدلات

على سلم المعراج والصخرة التي

تفاخر ما في الأرض من صخرات

على القبلة الاولى التي اتجهت لها

صلاة البرايا في اختلاف جهات

على خير معمور وأكرم عامر

وأشرف مبني لخير بنات

لتبكي على القدس البلاد بأسرها

وتعلن بالاحزان والترحات

لتبكي عليها مكة فهي اختها

وتشكو الذي لاقت إلى عرفات

لتبكي على ما حل بالقدس طيبة

وتشرحه في أكرم الحجرات (٢٦)

ومثل ابن مجاور شعراء كثيرون نظموا في هذا الباب. ولما حل النصف الثاني من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي وغابت شمس الخلافة العباسية عن بغداد وقد اجتاحتها هولاءكو وعرض أهلها لسنين عجاف قال الشاعر شمس الدين محمد بن احمد الكوفي (٦٢٣-٦٧٥هـ) يرثي بغداد وقد رأى فيها الدمار والخراب والحرائق ومئات القتلى:

ما للمنازل أصبحت لا أهلها

أهلها ولا جيرانها جيرانها

وحياتكم ما حلها من بعدكم

غير البلى والهـدم والنيران

ولقد قصدت الدار بعد رحيلكم

ووقفت فيها وقفـة الحيران

وسالتها لـكن بغير تكلم

فتكلمت لـكن بغير لسان

ناديتها يادار ما صنع الالى

كانوا هم الأوطار في الأوطان

أين الذين عهدتهم ولعزهم

ذلا تخرر معاقد التيجان

كانوا نجوم من اهتدى فعلهم

بيكي الهدى وشعائر الإيمان (٢٧)

لقد حلت النكبة فاستبد الحزن بالشاعر ، فطاف في معالم بغداد بيكي فراق الأحبة  
ويبحث في أرجائها، فلا يجد لهم اثرا غير الخرائب والحرائق، كان وصفه المدينة  
المنكوبة قصيرا وعاما ولعل حزنه على أصدقائه قد طغى عليه وشغله عن الانصراف  
طويلا إلى معالم المدينة المهذومة، ولشاعر آخر هو تقي الدين اسماعيل بن ابي اليسر  
التتوخي ( ت ٦٧٢هـ) يرثي بغداد وبدأ قصيدته وكأنه تخيل قادماً من سفر بعيد، جاهلا  
مادام المدينة وأهلها، راغباً في زيارة احبابه ، متطلعا إلى لقاء بني العباس فيها ،  
طامحا في مجالسة الاتقياء والعلماء قال:

لسائل الدمع عن بغداد أخبار

فما وقوفك والأحباب قد ساروا

يا زائرين إلى الزوراء لاتفقدوا

فما بذاك الحمى والدار ديار

تاج الخلافة والربع الذي شرفت

به المعالم قد عفاه أقفار

أضحى لعطف البلى في ربة أثر

وللدموع على الأثار أثار

وكم نخائر أضحت وهي شائقة

من النهاب وقد حازته كفار

وكم حدود أقيمت من سيوفهم

على الرقاب وحطبت فيه أوزار

ياللرجال لأحداث تحدثنا

بما غدا فيه أعذار وأنذار

من بعد أسر بني العباس كلهم

فلا أنار لوجه الصبح اسفار

لم يبق للدين والدنيا وقد ذهبوا

سوق لمجد وقد بانوا وقد باروا

أن القيامة في بغداد قد وجدت

وحدها حين للإقبال إخبار

آل النبي وأهل العلم قد سيبوا

فمن ترى بعدهم تحويه أمصار (٢٨)

وفي مطلع القرن التاسع عشر سجلت حادثة خطيرة هزت عواطف شعراء العراق وأثارت فيهم الالم الشديد والاستنكار الصارخ تلك هي حادثة عزو الوهابيين لمدينة كربلاء بهجوم كاسح فنهبت محتويات ضريح الامام الحسين(7) وكل ما فيه من تحف وآثار نادرة ووضعوا السيف من رقاب اهلها كباراً وصغاراً رجالاً ونساءً واستحوذوا على ممتلكاتهم واحدثوا فيها شتى انواع النهب والتخريب فنظر الشعراء إلى هذا العدوان كأنه تجديد لمأساة واستشهاد الحسين واهل بيته واصحابه(8) من واقعة الطف.. فبكوا وسخطوا وأستهضوا وآثروا ونقموا على الوهابيين أشد النقمة وهددوهم وناظروهم وجادلوهم ... وكان أبرز الشعراء الذين استفزهم هذا العدوان الشاعر هاشم بن حردان الدورقي (ت ١٢٣١هـ-١٨١٧م) (٢٩) فانطلقت عاطفته طافحة بألم شديد في قصيدة صبغها بالدماء وحشد فيها صوراً تفيض آلاماً فاستعرض فيها اسماء من قتلوا من رجال الدين ووجهاء وتجار وصور ذكر النساء والاطفال وما اصابهم من ذهول وهلع ... ثم استنهض قومه للأخذ بالثار والانتقام من المعتدين لما لحق بهم من اذى وشقاء وتشريد ... ومن أبياتها .

نبكي فربة عبرة تروي ظما  
ظلما وأجسادا تغسلها الدما  
في الليل من فوق البسيطة أنجما  
بعد الحجاب فاصبحت مثل الاما

ياسعد قف بي في المنازل ساعة  
تبكي نفوس تقى تراق على الطبعا  
تبكي لصرعى في التراب نخالها  
تبكي حرائر هتكت أستارها

ويشير إلى مدينة كربلاء :

يوم قضى " ابن محمد " فيه ظما  
فذاً تطرق بالخطوب وتوأما

قد كنت احسب أن غاية كربها  
فاذا الرزبا لاتزال بربعها

والى الحسين (7) يوم قتل ويوم غزا قبره الوهابيون :

لم تفت قارعة تحل بربعه	حياً وتزعجه رميماً أعظماً
كتب البلاء على علاه كأنما	فرض البلاء على علاه ودُتْما
حيا وميتاً لايزال مجرعاً	بأكف أهل البغي صابا علقماً
ويروح يوماً صدره متحطماً	فيهم ويوماً قبره متهدماً
خلفاً توارثه البغاة وسيرة	يقفو بها المتأخر المتقدماً

والقصيدة طويلة تتألف من سبعة وثمانين بيتاً (٣٠).

الرياء العام: ويشمل رثاء أهل البيت النبوي الشريف والحكام والأمراء والعلماء والمفكرين والأعيان والأهل والأقارب والأصدقاء . والملاحظ في هذا النوع من الرثاء بروز نقطتين رئيسيتين أولهما نذب الفقيد والتوجع عليه، وثانيهما الإشارة والتتويه به وتعداد فضائله ومآثره ، فإن كان المتوفي أميراً او حاكماً فلا بد للشاعر أن يتطرق لأعماله الجليلة وماقدمه من منجزات خالدة لصالح مجتمعه، وإن كان من اهل العلم والأدب والفضيلة فيؤين بذكر مناقبه وخصائله الحميدة وآثاره العلمية والأدبية ، أما مرثي الأهل والاحبة فإنها تمتلئ باللوعة المتقدة والألم المحرق والبكاء المر، وتختتم معظم هذه المرثي بدعوة ذوي الفقيد بالصبر على المصيبة ورجاء العطف والرحمة للفقيد من البارئ سبحانه والسقيا لقبره، ومعظم أساليب الشعراء في هذا النوع من الرثاء كانت تقليدية عرفوها من القدماء وتناقلوها من جيل إلى جيل حتى وصلت إلى شعراء هذه الحقبة بالية من كثرة الترداد والاجترار، وكل ما أضافوه من نعوت إلى عظمائهم لم يزد على وصفهم

الدكتور عبد الرحمن كريم اللامي

بمضات من الادب العراقي في العصر الوسيط ١٢٥٨-١٨٠٠م - ٦٥٦-١٢٠٠هـ

بأوصاف صوفية كالغوث والقطب ، ونادرا مانجد ابتكارا في هذا الباب، وإذا كان الشعراء قد درجوا على التهويل والمبالغة في مدائحهم ، فإنهم ظلوا كذلك في مراثيهم يهللون المصيبة ويضخمونها وقد يبلغون إلى حد القول:

لو أن الجبال الراسيات هدت ، والبحار الزاخرات غاصت ، والأرض المنبسطة زلزلت ، لما كان عجبياً ، لأن من كان أرسخ من الجبال قدماً، وأكرم من البحر عطاء، وأوسع علما وحلما من سهول الأرض وصحاريها، قد مات وغاب تحت الثرى.

وظل الشعراء في تهويلهم يزعمون بأنهم لعظم المصيبة سوف يكون الراحل العزيز بالدم لا بالدمع ، وسوف تشق مرائرهم وقلوبهم قبل ان تشق جيوبهم وملابسهم، وظلوا يتمنون الموت قبل أن يصل اليهم نعي ذلك الإنسان، الذي اختطفه الموت وحرم الناس من فضله وكرمه، ولو اقتطفنا بعض مطالع القصائد لشعراء معينين، لوجدنا صدق هذه الظواهر فصفي الدين الحلي يقول في مطلع قصيدة رثى بها خاله الذي قتل غدرا :

أنظر إلى المجد كيف ينهدم

وعروة الملك كيف تنفصم

واعجب لشهب البزاة كيف غدت

تسطوا عليها الحداة الرخم

قد كنت أختار أن أعيب في التـ

رب وتبلى عظامي الـرمم

ولا أرى اليوم من أكابرننا أسـ

دا وفيها الذائب قد حكموا

وقال يرثي طفلاً صغيراً:

ياقضيـبـيا ذوى وكنان نظيـرا

مارأيننا له الغداة نظيـرا

اظلمت بعده الديار وقد كان

سـراجا بها ويدرأ منيـرا (٣١)

ما ارى الناس قبل مثواك يوماً

كان بالبين شره مسـ تطيرا

ومن أشهر المراثي التي جرى فيها قائلها رائيه أبي تمام في رثاء محمد بن حميد الطوسي قصيدة أبي معتوق الموسوي في رثاء الأمير خلف بن عبدالمطلب أمير

الدكتور عبد الرحمن كريم اللامي

بمضات من الادب العراقي في العصر الوسيط ١٢٥٨-١٨٠٠م - ٦٥٦-١٢٠٠هـ

---

الدورق في سنة ١٠٧٤هـ والتي بدأها بذكر فضائله بالعلم والدين والعطاء والشجاعة والعدل وقد دفن رفاته بالأرض بركتة لها وأن الصبر عليه قبيح فقال:

مضى خلف الأبرار والسيد الطهر

فصدر العلامن قبله بعده صفر

وغيب منه في الثرى نير الهدى

فغارت ذكاء الدين وانكشف البدر

هو الماجد الوهاب مافي يمينه

هو العابد الأواب والشفع والوتر

ومادفنه في الأرض إلا لعلمنا

به أنه كنز لها ولنا نخر

تعطلت الأحكام بعد وفاته

وضاعت حدود الله والنهي والأمر

فغير ملوم جازع لمصابه

ففي مثل هذا الخطب يستقبح الصبر (٣٢)

ورثى الشاعر هاشم بن حردان الكعبي من شعراء القرن الثامن عشر شقيقة فقال:  
ياشقيقى وأين منى شقيقى

مطلب عاند على الركب صعب

عل أن يبالغ الزفير إليه

ودموع لها مع السرب سرب

لم يطب لي من بعد بعدك طيب

وصحيب فما يكون الصاحب

كل عذب تركته لي مر

غير مر الجوى ففى عذب

## فطعامي لما نأيت سقامي

ودموعي لما قضيت الشرب

صبغت أدمعي ثيابي حتى

أنها من نضارة الدمع قشيب (٣٣)

بعد هذه الأمثلة يمكن أن نقول أن رثاء الحكام والملوك والأعيان والناس لم يختلف مضمونا عن رثاء الشعراء السابقين لهذه الفئات من الناس، وزاد عليه قصوره من حيث الشكل عن مستوى شعر الأسلاف، فلم يستطع اللحاق به أو الدوران في فلكه على الرغم من شدة محاولته في ذلك، أما العاطفة فأنها تختلف من شاعر إلى آخر تبعا لعلاقة الشاعر بالفقيد فهي صادقة على الأرجح حينما تكون في رجل أحب الناس وأحبوه أو في اخيه أو صديقه أو عزيز عليه وهي غير صادقة في الغالب إذا دعت إلى نظم القصيدة المناسبة غير المؤثرة في أحاسيس الشاعر.

### ٣- الغزل

كان معظم شعر الغزل في هذه العصور تقليدياً ، تفتح به القصائد وتجمل به المدائح وتروح به النفوس، واعتمد الشعراء فيه على نهج الأقدمين في تكرار معاني النسب واستخدام تعابيره، فكانت الفاظه عذبة ورقيقة، ولكنها تفتقر إلى حرارة العاطفة ولوعة الحب الحقيقي، وظلت حبيبة اليوم كحبيبة الأمس من حيث الصفات الجسدية والنعومة والغنى وروائح العطر وما إلى ذلك، فتعاقب الأزمان والدهور والمؤثرات المختلفة التي جاءت بها الأيام لم تغير شيئاً من صورتها وأوصافها ومن غناها ومن بشرتها وشعورها وطيب حديثها ، وبقيت كالقديمات من الحبيبات في حل وترحال، تتخذ الإبل مطية والهودج مجلساً والكلبة ستاراً ، على الرغم من تباين بينات كل من القدماء وهؤلاء ، واختلاف ثقافتهم وأنماط معيشتهم، كذلك ترسم شعراء هذه العصور أسلافهم في التعبير عن هواهم وحدهم دون هوى فتياتهم، وأعرضوا عن ذكر ما يكابده من حب وما يلقي من تباريحه. الرجل دائماً وحده العاشق، والفتاة دائماً هي المعشوقة، الرجل وحده هو الذي ينفعل ويضطرب ويدور فيه الإحساس وتغلي فيه العواطف عند اللقاء أو الوداع أو الوصال أو الهجران وفي كل المواقف والحالات. لقد اتفق السابقون واللاحقون على هذا حتى يصعب التمييز بين الفريقين ، فالخلف صورة تكاد تتفق كل الاتفاق مع السلف، فالأبناء كالأباء هم الذين يعشقون، وهم الذين لا ترقأ لهم الدمعة، ولا يجد السلوان إلى قلوبهم سبيلاً ، هم وحدهم الذين تقتلهم ساعة الوداع ، ووحدهم تحييهم لحظات اللقاء أو الوصال، وحدهم الذين يشوقهم الحنين إلى مغاني الحب ومرابع الأحلام، عواطفهم وحدهم ملتبهة على الدوام، وقلوبهم منفتحة من الغرام، وعيونهم مسهدة لانتام قال الحلي :

أضع الخدود على ممر نعالكم

فكأنني بترابها أتبرك

ولقد بذلت النفس إلا أنني

خادعتكم وبذلت ما لا أملك (٣٤)

ومن الغزل التقليدي الذي كان تستهل به المدائح ويرمز به إلى حب الأمير وطاعته ما  
قاله أبو معتوق الموسوي:

بروحي عادة منهن تبدو

إلى قلبي وتتأى عن مكاني

يمثلها الخيال خيال طرفي

فأبصرها وتحجب عن عياني

تقد البيض في جفن نحيف

وتغري السابغات بغصن بان

ثناها كدر ثنا علي

مرتلة مرتبة المعاني

ومقلتها وعزمته سواء

كلا السيفين نصل هنـدواني

هواه إلى المديح كما دعتني

كذا التشبيب فيها قد دعاني (٣٥)

ومن الغزل العفيف ما قاله علي بن خلف الحويزي:

أفي كل يوم لي حبيب أودع

وطرف على فقد الأحبة يدمع

أشيع من أهوى وأعلم أنني

بروحني لا للضاعنين اشيع

لعمرك ان العيش بعد رحيلهم

وفـرقتهم مـالم يؤبـوا مضـيع

وأن جفوني منذ تتأت ركابهم

إلى الغرب من وكف السحاب لاهمع

لئت أصبح الوادي من الحي بلقعا

فبعدهم قلبي من الصبر بلقع (٣٦)

ومن الغزل العفيف الذي ترفع عن المجون وتوشى بالرفقة واللطافة قصيدة فتح

الله بن علوان الكعبي من شعراء القرن الثامن عشر في العراق قال:

من لصب غلب الشوق اصطباره

فلذا باح وللحب إمارة

لعبت في عقله أيدي الهوى

فلعذر خلع اليوم عذاره

الدكتور عبد الرحمن كريم اللامي

بمضات من الادب العراقي في العصر الوسيط ١٢٥٨-١٨٠٠م - ٦٥٦-١٢٠٠هـ

---

هو كالغصن إذا ماس لنا

وكبدر الـتم حسنا ونظارة

ياغزالا من ربي كاظمة

كدر الخاطر منذ أبدى نفاة

كان يأتي منك طيف في الكرى

ولأمر منع اليوم مزاره

ما على مثلك لو واصلنا

فحسى يطفى من القلب شراره (٣٧)

#### ٤ - الوصف

كان لشعر الوصف نصيب وفير في شعر العصر الوسيط، وقد وصف شعراء هذه العصور اموراً كثيرة ، وقلدوا القدماء في كافة أبواب الوصف، فوصفوا الناقاة والعيس ، ووصفوا الطبيعة ووصفوا الضعن الراحل والهودج وما فيه من صبيحات الوجوه ومهفهفات القدود وفاتنات العيون وحبيبات القلوب وروعة القدود ، وما ترك ذلك من آثار في القلوب والدموع على الخدود، ووصف الشعراء الطبيعة، وما فيها من مباحج ومحاسن وألوان وظلال وشموس وزهور ورياحين وجبال و أودية وتضاريس ومعالم كثيرة، وكثيرا ما يبعث الشاعر الحياة او يرسل الروح في مظاهر الطبيعة، فيجعلها تغني أو ترقص أو تزهو أو تختال او ترقب الخطو أو تغار، كأنما هي كائنات حية تشعر كما يشعر كل ذي روح. وعملية التشخيص هذه عرفها القدماء وسار عليه المحدثون، ويمكننا أن نقول أن الوصف في هذا العصر لم يختلف كثيرا عن الوصف في العصور التي سبقتة ، الا في بعض قضايا الازدهار الحضاري والحياة المرفهة التي لمسناها في وصف العصر العباسي ، حينما كان يعمد الشعراء إلى وصف القصور ومجالس اللهو والترف والبذخ وصور الحياة اللاهية، التي برزت في العصر العباسي، ووصف شعراء هذا العصر أمورا كثيرة من بيع وشراء وأسواق وصناعات، كما وصفوا بعض ماتحويه المنازل من أثاث وأفراد وبعض ما يدخل هذه البيوت من إنسان أو حيوان وضيوف ووصفوا العلماء والمصلحين والفجار والفاسقين ، ويبدو أنهم لم يتركوا شاردة أو واردة إلا ووصفوها بأبيات قد تقل فتكون بيتين وقد تكثر فتكون قصيدة كاملة، ولم ينسوا أن يصفوا المصائب والكوارث التي تحل في البلاد، من جيوش غازية وزلازل أو مجاعات أو فيضانات أو أمراض فتاكة وغيرها من مظاهر هياج الطبيعة. لقد انتزع الوصافون من أشعار القدماء وأفادوا منها ثم عمدوا إلى بيئاتهم فجنوا منها صورا كثيرة ، ونجد في هذا الوصف الفاظ الزهر والورد والنرجس والروض والدر والياقوت، واقتنوا في وصف

الدكتور عبد الرحمن كريم اللامي

بمضات من الادب العراقي في العصر الوسيط ١٢٥٨-١٨٠٠م - ٦٥٦-١٢٠٠هـ

---

الازهار وعقدوا بينها المقارنات وتصوروا المحاورات فصفي الدين الحلبي يعقد حواراً بين  
النرجس والورد والسوسن ويجعل كلاً منها يفتخر بحسنه ولونه قال:  
قد نشر الزنبق أعلامه

وقال كل الزهر في خدمتي

لو لم أكن في الحسن سلطانهُ

مارفعت من دونهم رأيتي

فقهقه الورد به هائزاً

وقال ماتحذر من سطوتي

وقال للسوسن ماذا الذي

يقول الأشيب في حضرتي

وامتعض الزنبق من قوله

وقال للأزهار يا عصـبتي

يكون هذا الجيش بي محققاً

ويضحك الورد على شيبتي (٣٨)

وللشاعر نفسه يصف الربيع:

خلع الربيع على غصون البان

دُلاً فواضلها على الكثبان

ونمت فروع الدوح حتى صافحت

كفل الكثيب نوائب الأغصان

وتتوجت هام الغصون وضرجت

خـد الرياض شقائق النعمان

وتدوعت بسط الرياض فزهرا

متباين الأشكال والألوان

والظل يسرق في الخمائل خطبه

والغصن يخطر خطرة النشوان (٣٩)

وكأنما الأغصان سوق رواقص

قد قيّدت بسلاسل الريحان

والشمس تنتظر من خلال فروعها

نحو الحدايق نظرة الغيران

وهذا أبو معتوق يصف الأفق حين طلوع الشمس وغياب النجوم:

كأنما الأفق لما شمسهُ غريت

والليل يشمل در الشهب مسددهُ

صبُ تردى بأفواه الأسى فبكى

بدمع يعقوب لما غاب يوسفه (٤٠)

وقال يصف عارضاً :

بروحي عارضاً كالشذر حسناً

على ياقوت خد كاليهب

وحقك ماسعى في الخد إلا

لياقط خلسة دُبب القلوب (٤١)

لم يخل فن الوصف في هذا العصر من الابتكار والتجديد رغم أن شعراءه لم يقطعوا أسباب اتصالهم بالوصف القديم التقليدي ، وقد بدأت في شعر تلك الفترة ملامح ابتداء لم تقتصر على هذا الفن وحده، وإنما كانت موزعة على الفنون الأخرى، وربما كانت في الوصف اتم نضجاً وأوفى جلاء وادعى إلى الإعجاب والتقدير.

#### ٥- الإخوانيات

هي رسائل شعرية يبثها الشاعر إلى أهله وذويه وأصحابه وأصدقائه ومعارفه ومن تربطه بهم علاقات الود والصدقة والمصلحة والرابطة الاجتماعية. تتناول العلاقات الاخوية والاجتماعية في شتى الظروف والمناسبات بما فيها من شوق ووداد واحترام وعتاب وفراق وتهنئة واعتذار ومزاح وزيارة وحنين ، وفي ظل هذه الأجواء الإنسانية لا بد ان يكون الشعر خالياً من التكلف والتصنع، عذباً في معاملته ، سهلاً في الفاظه، يداعب النفس ويسترق الشعور، تتميز الفاظه بالقدرة الموسيقية التي تسخر اللفظة والجملة والمعنى والزينة لها، وتسبك ذلك كله في إطار بارع شفاف لها، وتشيع في الأبيات الروح الجذابة، وتفسير ذلك أن شاعر الاخوانيات بهذه الموسيقية وبهذه

السهولة يحتاج إلى ذخيرة كبيرة من الإرث الشعري والثقافي، الذي يضع بين يدي الشاعر كل الألفاظ والتعابير، ويجعله قادراً أن يصب ضمن الموسيقى الشعرية ما يشاء. أن الشاعر بغير هذا الرصيد وبدون هذه الذخيرة التراثية، لا يستطيع أن يبدع في اغراض الاخوانيات بمرونة جذابة التي تتطلبها هذه الأغراض، وفي هذا الشعر الأخواني لا يحمل الشاعر هموماً كبرى، ولا تطلعات سامية، ولا تعيش على أكتافه هموم الجماعة ولا مثلها، ولا ترن في اسماعه واحاسيسه الداخلية أصوات الجماهير ومواقف الدول ومصائر الناس ومسالك الجماعات، وإنما كل الذي يرن في اسماعه هذا الصدى الخفيف الرقيق، الذي يشبه ان يكون سلكاً واحداً يربط بينه وبين أخ من أخوانه أو أحبائه، لاجسراً تعبر عليه جماعات أو ترسم فوقه مواقف او تتحد عنده مصائر، بل أن هذا الصدى لم يكن صدى رائعاً يجاوز هذين القلبين أو هذين الإنسانين، إن شاعر الاخوانيات يتطلع إلى جانب نفسي أصيل، هو جانب البث ، باكثر مما يتطلع إلى جانب الابداع، أنه لا يحتاج إلى معان كثيرة مغلطة في إثارة الذهن وإناء الفكر، فهو يحتاج دائماً إلى فيض عاطفي متدفق ، إنه يحتاج إلى رذاذ من هذه العواطف لا إلى شلال متدفق عنيف منها، ولا يحتاج الشاعر إلى أخيلة واسعة تضرب إلى آفاق بعيدة تعبر عن قوة الإبداع، لأن الشعور الإنساني في هذا الموقف يتطلب التواصل والتماس بين النفسين بأكثر مما يتطلب إلى آفاق بعيدة، من ذلك قول علي بن خلف الحويزي إلى أحد أخوانه يتألم لفراقه قال:

ففي أمان من الإله ورحبُ

أيها الضاعنون عني بلبي

ماكفي الدهر سعيه بنوى الاحباب

حتى انثى بنشيت صـحبي

لست انسى أيامنا بلوى الجزع

وعيشي منه بوصل وقرب

وأخ لو بعدت عنه بأصلي

قد دنا من حماة قلبي ولبي

لو دعاني من البعاد لخطب

كنت فيما دعا اليه لمبي

فعزىز عليه يفقد شخصي

وعزىز أن لا أراه بسـري (٤٢)

وقال الشاعر نفسه مجيباً أحد أصدقائه عن أبيات بعثها اليه:

كتابك وافاني فبرد غلتي

الدكتور عبد الرحمن كريم اللامي

بمضات من الادب العراقي في العصر الوسيط ١٢٥٨-١٨٠٠م - ٦٥٦-١٢٠٠هـ

---

وسحت دموع مذبذبت سجام

كريح الصبا يشتاقه فاقد الأسي

وتحدث منه لوعة وغرام

سلام محبب لا يزال وداده

مقيم بقلبي ما أقام شمام

يقولون أن البعد يعقب سلوة

إذا مر شهر أو تجدد عام

فهذي شهر الصيف عنا تصرمت

وحالت جبال دوننا وأكام

فما لفؤادي لايقرر قراره

وجفني قضى لايعتريه منام (٤٣)

وكتب الشاعر نفسه إلى احد العلماء يتودد اليه:

يا أخوا بشرنا تأخرت عنا

قد أسأنا ببعده عهدك ظنا

كم تمنيت لي صديقاً صدوقاً

فإذا أنت ذلك المتمني

فبغصن الصبا لما تنثى

وبعهد الصابي وإن بان عنا

كن جوابي لكي ترد شباي

لاتقل للرسول كان وكنا (٤٤)

الدكتور عبد الرحمن كريم اللامي

بمضات من الادب العراقي في العصر الوسيط ١٢٥٨-١٨٠٠م - ٦٥٦-١٢٠٠هـ

---

وللشاعر أبي معتوق قصائد عديدة في هذا المجال منها قصيدة يعتب فيها على أحد أولاده لرحيلة عنه إلى بلد آخر فقال:

جعلتك بالسويدا من فؤادي

ومن حـدقي فـديتك بالسواد

هويتك واصطفيتك دون رهطي

وأولادي فكنيت من العادي

جهلت أبوتي ووجدت حقي

وقابلت المودة بالعناد

أنتسى حسن تربيته ولطفه

وماسـبقت اليك من الأيادي

رجوتك كالعصا لأوان شـيبي

ومعتمـدي إذا مالـت عمادي

الدكتور عبد الرحمن كريم اللامي

بمضات من الادب العراقي في العصر الوسيط ١٢٥٨-١٨٠٠م - ٦٥٦-١٢٠٠هـ

---

واين كسرت يد الحدثن عظمي

تـرى منه بمنزلة الضماد

ولست أخال فيك يخيب ظني

ويخطئ سهم حدي واجتهادي

عساك علي تعطف يا حبيبي

وتهجر ماتروم من البعاد (٤٥)

## ٦- الزهد والحكم

هو الإقلاع عن ملذات الحياة ومباهاجها المادية ومغرياتها والاكفء باليسير من متطلبات العيش لأن الإنسان مآله إلى الموت والرحيل عن هذه الدنيا فلا داعي للتهالك على منافع قصيرة الأجل وفي هذا النوع من الشعر يطغى الجانب العقلي على الجانب العاطفي وتكون التجربة ذات أثر في صقل الفكرة التي بذهن الشاعر وقد كان للكبت والحرمان نتيجة لعهود الظلم والاستغلال التي تعرض لها المجتمع أثر في ازدهار هذا الغرض وهو من الاغراض القديمة التي رافقت حياة الشاعر العربي لكنه في العصور الأخيرة كان أكثر ازدهاراً نتيجة لمعاناة الشعراء وما عانوه من كبت وحرمان فلم يجدوا أمامهم وسيلة غير الدعوة بالمتصل من الدنيا واحتقارها والتوجه إلى الله(I) بجبر الخواطر فيما وعدهم به من خير في الدنيا والاخرة قال ابن رحمة الحويزي :

دع الدنيا ولا تـركن اليها

فزخر فها سـ يذهب عن قليل

وإن ضحكك بوجهك فهو منها

كضحك السيف في وجه القتيل (٤٦)

وقال الشاعر هاشم ابن حردان الكعبي من شعراء القرن الثامن عشر الميلادي

في العراق يوصي بالقناعة والصبر:

تمر سنين ثم تعبر اختها

وليس لغير الله من ذي أمر

فما البؤس في الدنيا مقيم ولا الهنا

ولا الخير بالباقي لديها ولا الشر

ولا ينفع المكروب شيء سوى الرضا

بما قدر الباري له الحمد والشكر

ولا شيء كالصبر الجميل لعاقل

وإن كان طعم الصبر أيسره الصبر<sup>(٤٧)</sup>

وقال علي بن باليل الدورقي من شعراء القرن السابع عشر:

إلى متى أنت باللذات في شغل

أما سمعت بفعل الدهر بالأول

لاتأمن الدهر ان الدهر ذو حيل

أعيا على كل ذي عقل وذو جدل

أين النجاء من الأرزاء فاغرة

والموت يفتقر عن أنيابها العصل

وكيف نرجو انهزاماً من مصارعنا

والحتف يسبق طرف الطالب العجل

فاحمل من الزاد شيئاً للرحيل غداً

أن المسافر لا يغني عن الثقل (٤٨)

وقال ابو معتوق الموسوي :

لو أقسم المرء بالرحمن خالقه

بأن بعض الورى لاشيء ما حنثا

أن كان شيئاً فغير الله خالقه

الله اكرم من أن يخلق العبأ (٤٩)

وقال محمد مؤمن الملقب بالحكيم الجزائري:

دع الأوطان ينـدبها الغريبُ

وخـل الـدمع يسـكبه الكئيبُ

ولاتحـزن لأطـلال ورسـم

يهـب بهـا شـمال أو جنـوبُ

ولاتطـرب إذا ناحت حمـام

ولاحت ظبيـة ويدا كئيب

ولاتصـب لرنـات المثنـاني

والحـان فقـد حـان المشـيبُ

ولاتعشـق عـذاري غانـيات

يـزين بـنانها كـف خـضـيب

ولاتـله بـحب صـبيح وـجه

شـبيه قـوامه غـصـن رطـيب

ولاتـشـرب مـن الصـهباء كـأسا

يـكون مـديـرها سـاق أـريـب

ولاتـصـحب حـميمـاً أو قـريـبـاً

فـكل اخ يـعـادي أو يـعيـب

ولاتـأنـس بـخـل أو صـديـق

وذـهـم أنـهـم ضـبـع وذـيـب

ولاتقـرح ولاتحـزن بشـيء

فـلا فـرح يـدوم ولا خطـوب

ولاتجـزع إذا ما نـاب هـم

فكـم يتأـو الأسى فـرح قـريبُ

وسـكن لوعـة القـلب المعنـى

وانشـد حـين يعـروه الوجـيب

عسى الـهم الـذي امسـيت فـيه

يـكـون وراـء فـرح قـريب

ولاتيـأس فـإن اللـيل حـبـلى

يـكـون ليومـها شأن عـجيب (٥٠)

## ٧- الشعر التعليمي ونظم العلوم

يرتبط هذا اللون من النظم بالشعر بواسطة القافية والوزن، ومعظمه على بحر الرجز ، ويفتقر إلى العاطفة والخيال، واستخدم ليسهل حفظ العلوم والفنون، والبدايات الأولى له ظهرت في مطلع القرن الثالث الهجري من العصر العباسي، لعدة اعتبارات حضارية وثقافية واقتصادية ، فظهرت منظومات لكثير من العلوم في النحو مثل ألفية ابن مالك وألفية ابن معطي وغيرهما، وفي الرياضيات والمنطق والفقه والفلك والطب والكيمياء وغيرها من العلوم ، وقد استفحل أمر هذا الشعر في العصر الوسيط بسبب مايعانيه الكاتب وطالب العلم من عدم القدرة في الحصول على الورق وأدوات الكتابة، وعدم استقرار الحياة العلمية والاجتماعية التي تتيح للعالم والمتعلم وقتاً كافياً للنقاش والحوار بسبب كثرة الحروب والكوارث وضيق سبل طلب العلم، وقد اتسع النظم وفق هذا الأسلوب ليشمل التاريخ والجغرافية والفلسفة والبديعيات والصوفيات والوعظيات واللغزيات والزهديات والطرديات والأمثلة كثيرة جداً على ذلك<sup>(٥١)</sup>.

## الخصائص الموضوعية والفنية للشعر في العصر الوسيط

انعكست على شعر هذا العصر ملامح الحياة وأصداء أحداثها السياسية والاجتماعية وتياراته الفكرية والعقائدية، اضافة إلى سيطرة العنصر الأجنبي ولغته وثقافته، وكان الحكام الأعاجم لا يفهمون الشعر العربي ولا يتذوقونه، وقد افتقد الشعراء والأدباء عامة عنصر التشجيع والرعاية التي كانوا يحظون بها في عصور السيادة العربية، وقد تميز أدب العصر بشكل عام والشعر على نحو خاص ببعض الخصائص والسمات والمظاهر الموضوعية والنفسية والفنية منها ما يتعلق بالشاعر والأديب ومنها مايتعلق بالشعر والثقافة ومنها مايتعلق بالظروف العامة التي يعيشها المجتمع وهي:

- ١- الضعف الموضوعي وهلهلة البناء والصياغة الفنية وقلة الابتكار، نتيجة للجمود الفكري والعقم العقلي... ذلك أن التراث العربي الضخم الذي تكس في المكتبات العربية في عصور الازدهار الثقافي أنت عليه عوامل الدمار المتعاقبة من حروب صليبية ثم مغولية ثم عثمانية وما يتبعها من حرق ودمار، ومن هجرة الشعراء والكتاب من مواطنهم وتشردهم في الآفاق، حال دون حصول الشاعر على ثقافة كافية تنمي موهبته وتنهض إبداعه.
- ٢- زهد الأدباء المقتدرين في الشعر، إلا ما يكون تملحاً أو دعابة وما أشبهها ، لأنهم لم يجدوا استجابة للشعر الجاد الجيد وسموا بأنفسهم أن يبتذلوا القول لدى من لايقدرونه من الحكام والسلطين الأجانب، ففقد أهم عامل من عوامل بواعث الشعر وتشجيعه الذي يضع الشعراء في المواضيع التي يستحقونها.
- ٣- إحساس الشاعر والأديب بالاعتراب في عصره وبين قومه وعلى أرض بلده، ولعل هذا الاحساس بالغرابة هو الذي أملى على الشعراء الكثير من معاني أشعارهم وموضوعاتهم، مثل موضوعات التصوف والغزل الروحي أو المجرد أو المديح الديني والابتهاال والحنين ولاشكوى ... وربما رجعت اسباب هذا الإحساس بالاعتراب ما رآه الشعراء في واقعهم من متناقضات الأوضاع، ومرارة الصراع بين الوجود العربي والإسلامي والقوى الخارجية وكلها قوى قاهرة وحال العرب والمسلمين لاتسر ، من تخلف وتأليب الأعداء من صليبيين وتتار وعثمانيين وضياح في الداخل من نزاع وفرقة وخصومات.

- ٤- قلة الشعراء المحترفين وشيوع النظم بين كثير من طبقات المتعلمين خاصة العلماء والكتاب والقضاة وأصحاب الحرف، ممن نالوا قسطاً من المعرفة ، ونجد عدداً كبيراً في هذا العصر من الشعراء العلماء والفقهاء شعرهم لا يرقى في مستواه العاطفي والخيالي والتصويري إلى رتبة الشعر الجيد، وكان التلاعب بمصطلح العلوم يدين الكثير من هؤلاء الشعراء، واستخدموا الألفاظ والمعاني الدينية المستمدة من القرآن والحديث الشريف ما بين القصص الديني وحياة الزهاد والصوفية.
- ٥- الميل الشديد إلى نظم معجزات النبي ومناقب أهل بيته والخلفاء والصحابة والإقبال على النظم التعليمي ومنه البديعيات والصوفييات والزهديات والوعظيات والطرديات.
- ٦- العناية بالفنون الشعرية الشعبية المستحدثة كالموشح والمربعات والزجل والموليا والكان وكان والقوما والبند والدوبيت والافتتان باللغة العامية والنظم بها، وكذلك التفنن بالشكليات كما في الشعر الهندسي والطردي والعكسي والمحبوك والمشجر وملون القوافي وأشعار التبادل والمتواليات والتسميط والتخميس وما إلى ذلك من ألعيب الشعر التي بعدت عن منابع الشعر الأصيل.
- ٧- فقد الشعر كثيراً من عناصر الجمال الفني والجاذبية والخلق الإبداعي ، الناجمة عن رعاية الشاعر لشعره وتهذيبه وصياغته ودراسته على نحو مؤثر ... لأن الشعراء لم يعودوا متفرغين للنظر في الشعر وحده كما كان الشعراء في العصور السابقة، وإن التفرغ الذي كان ينعم به الشاعر في القديم انعدم في هذه العصور وتغير عمل الشاعر وصار يعمل في عمل

- آخر، فهو جزار أو وراق أو كحال أو حائك أو فلاح أو بناء ... مهنته تأتي قبل كل شيء ثم يتلوها نظم الشعر كهواية وليس احتراف.
- ٨- فقدان الدراسات النقدية التي تقوم الانتاج وتعطي كل ذي حق حقه من التقدير، وبيان المجالات التي اصاب فيها أو أخطأ ، فالحركة النقدية في هذه العصور خمدت حتى يمكن القول أنها ماتت وانطوت، وعلى هذا الأساس من أين يأتي التطور و الازدهار والمثل الأعلى للروائع الشعرية. بعد أن فقد وسائل تقيمه.
- ٩- على الرغم من ضعف الابداع واضمحلال الخلق الفني فقد ظل الشعر القديم زادا للشعراء يتناشدونه في مجالسهم للمذاكرة أو الاستشهاد، وينظرون اليه نظرة إكبار وإجلال ، حتى وصل الحال إلى عدد منهم أن ارتباطه بالماضي او التراث اكثر من ارتباطه بالحاضر، يقلد القدامى ويقتفي آثارهم وينظم على منوالهم، ويتخذ من بعض قصائد الفحول السابقين قصيدة يتناولها بالشرح والتعليق والمعارضة، مثل قصيدة الطغرائي المعروفة بلامية العجم وبردة البوصيري وتائية ابن الفارض ومرثاة أبي تمام مقياسا للنموذج الرائع في الشعر.
- ١٠- معاناة الشاعر من الازدواج اللغوي والركاكة الأسلوبية: الشاعر الحق هو الذي يمتلك الاداة اللغوية امتلاكاً تاماً. وقدر على تصريفها في السبل التي تريدها واستطاع توجيهها في اغراضه وفنونه جميعاً<sup>(٥٢)</sup>.
- وإذا انفصلت اللغة عن حياة الشاعر وكانت بالنسبة اليه أجنبية أو كالأجنبية بطل سحرها في نفسه قبل كل شيء وسقط التجاوب العاطفي بينها وبينه، وأصبحت عاجزة عن أداء ما اختلج في الوجدان وتوهجت به العاطفة، ويتمثل ضعف الشعراء الذين عاشوا في هذه العصور بالأخطاء اللغوية والنحوية التي يقعون فيها، وفي العمامة

يقرنون بها وبين اللغة الفصيحة. وفي إنعزالهم عن الجمهور الكبير من الشعب، إلى جمهور صغير من المدرسين والفقهاء وكتاب الدواوين، ان الكلمات تكتسب دلالتها الانفعالية وظلالها من استعمال الناس لها ، ومن اقترانها في أذهانهم لاحداث ومناسبات ، فإذا ما عاشت في قلوب الناس حية نابضة بالحركة، واستعملها الشاعر جذب اليه الاحاسيس والمشاعر، وأثر في مستمعيه، أما إذا كانت مجهولة في أذهانهم مفقودة في سنتهم معزولة عن حياتهم وجاء بها الشاعر فقدت وهجها الأصيل، وغدت مجرد رصف لألفاظ مكدسة في الكتب، وهو ماكان عليه الحال في تلك العصور... الحاكم لغته بين العامية والأعجمية، والشعب لغته عامية، والشاعر لغته فصيحة غير ناضجة في ذهنه... إلى جانب الركاكة في الأسلوب، وإن الركاكة تنشأ من عدم تمكن الأديب في اللغة التي يكتب فيها، وافتقاره إلى معرفة اصولها وقلة بصره بالفروق الدقيقة بين دقائق المفردات ومعاني التراكيب وروابطها، وعجزه عن التصرف باللغة تصرف من يمتلك زمامها ويعرف اسرارها ويقدر على تأليفها تأليفاً محكما ونظمها نظماً متناسباً منسجماً...

### الاسلوب والموسيقى والبناء

ظهرت ثلاثة اتجاهات أو تيارات واضحة من حيث الصياغة والاتجاه الفني:

١- الاتجاه التقليدي : المحافظ على الصياغة القديمة بكل مقوماتها وأصولها، وسار في هذا الاتجاه جماعة من المتقدمين والشعراء المحترفين، وإن قلوا وجماعة من الشعراء وشعراء الصوفية، وغالبا ماينتهج هذا النهج التقليدي بالموضوعات الجديدة كالمديح النبوي ومديح السلاطين وكبار رجال الدولة ووصف الوقائع العسكرية والانتصارات والمناسبات الكبرى وفي رثاء العلماء وماشابهها من الموضوعات.

٢- الاتجاه البديعي : الذي يلعب فيه الشعراء بضروب البديع المنوعة، ويخرج الشعر قطعاً موشاة بضروب الصنعة، وغلب هذا الاتجاه على معظم الشعراء، وكان الكتاب الشعراء يبنون شعرهم غالباً ببناء الرسائل بل ويستخدمونه استخداماً في الترسل، وشاع استخدام التورية والتجنيس والتقنن في الصور البيانية والتشبيهية والاستعارة والكناية والاقتباس لفظاً ومعنى من القرآن الكريم والحديث والأمثال والكلام المأثور والشعر القصصي.

٣- الاتجاه الشعبي: الذي يسلك سبل الكلام الجاري، ولفظ فصيح يحتمل الإعراب ويختلط بالفاظ عامية او عبارات دارجة.

البناء الموسيقي :

فقد استخدم العروض التقليدي وإلى جانبه ظهرت أوزان جديدة للفنون الشعرية المستحدثة المعربة وغير المعربة، كأوزان الموشح والزجل والمربعات و الدوبيت والكان وكان والقوما والمواليا. وهذه الأوزان تبدو جديدة وطائرة على العروض المألوف في الشعر العربي ، ولاتستسيغها الأذن العربية لمخالفتها للعروض التقليدي المألوف. ومال الشعراء إلى نظم المقطعات القصيرة، وعدلوا عن القصائد الطويلة ، خاصة في الموضوعات غير الجادة وعمدوا إلى تعدد القافية في القصيدة الواحدة، والى تشطير قصائد الشعر القديمة المشهورة<sup>(٥٣)</sup>.

اشرنا فيما سلف إلى الحالة التي انتابت بلاد الرافدين بعد زوال الخلافة العباسية من بغداد وسيطرة التتر ومن بعدهم التركمان والفرس ثم العثمانيون، ومار افق ذلك من حروب وفتن واضطرابات وخراب في أحوال البلاد كافة ، ومن بينها الثقافة والادب حينما أصبحت العربية غريبة في بلادها، وحلت بدلا عنها اللغات التترية والفارسية والتركية، وكانت اللغة العربية لغة الدين حسب، فخدمت الثقافة وركد الأدب نثره وشعره، في تلك العصور، وقد أشار احد الباحثين إلى حالة النثر في تلك الحقبة فقال : أما النثر فقد اصابه ضعف شديد في الجوهر والمظهر، لأنه صناعة لفظية وليس لها مما للشعر من القوة العاطفية والشيوخ والهوى المجتمعي فالدولة الالخانية ما استعملت اللغة العربية، الا في امور العراق وشيء من المراسلات مع الاقطار الإسلامية كمصر والشام، فكان النثر مستعملا في أهون اساليبه وأقربها إلى لغة العامة، وقد حلت اللغة الفارسية واللغة المغولية مكان اللغة العربية في اكثر البلاد العربية والاسلامية التي انتهى منها الحكم العربي، وكان المتسلط قد أشغل الامة بنفسها فعادت لاتلتفت إلى العلوم والآداب ، أو الهيئ عما يفيد وأهملت العربية وأدائها. فلا يوجد مزايا لهذا العهد أكثر من خمول الحركة الادبية، لعدم المشجع والمناصر ولعدم الالتفات بل الإهمال والتترك ، فنرى الثقافة كأنها قد غادرت وطمست معالمها وزادت من البين، فلم نجد من الامثلة ما يؤدي الخدمة ولو بنماذج محددة، أن تلك الحوادث المؤلمة أدت إلى القضاء على روح النهضة العلمية وشل يدي الحركة الأدبية فتضاعلت أصوات العلماء، وخدمت قرائح الأدباء، فلا تكاد تسمع يومئذ للعربية وآدابها صوتاً، فعانى النثر في الفترة الأولى من الحكم العثماني ما عاناه الشعر من الجمهود والتأخر، فكان يتخبط في آفاق ضيقة ومحدودة، كالتهنئة بمولد والعودة من الحج، والتعزية بموت عزيز، أو عتاب واعتزاز ، إضافة إلى المدح لمن بيدهم الحل والربط، من الولاة تقرباً لهم، أملاً في عطايهم بمقالات مسرفة في آفاق المحسنات البديعية وتزويق اللفظ والاهتمام بالسجع،

فالأدب العربي كان في انحسار وتراجع وجدب وجمود وعجز عن التطور والتجديد، وأنه تخلف كثيراً عن عصور الازدهار السابقة وأن هذا الحكم ينطبق على العصر الوسيط كله (٥٤).

ومع كل هذه الانطباعات والتصورات والآراء حول تأخر نثر العصر الوسيط، والعقبات التي واجهت الكتابة الفنية، فقد حملت لنا كتب التراجم أسماء عشرات من الكتاب والناثرين، اقترنت أسماؤهم بالعديد من المؤلفات والمصنفات، في مختلف أبواب المعرفة، والضرورات الكتابية ساهمت في بقائها واستمرارها شدة ولاء الأديب العربي لتراث امته الخالد، وقوة تمسكه بالانتماء إليها، والاستفادة من الثغرات التي تتيحها غفلات الحياة السياسية المضطربة آنذاك، وماقدمته الدول والممالك والإمارات العربية التي ظهرت في أجزاء من الوطن العربي، من رعاية للأدب والثقافة العربية حتى ولو على نطاق محدود ، فتوجه الكتاب وأدباء العصر إلى دراسة الأساليب النثرية الرفيعة القديمة ، فأدركوها وتأثروا بها فحذوا حذوها وسلكوا نهجها وألّفوا على منوالها فنثرهم تقليد للنثر العربي في أعز أيامه، وأسمى مراتبه، فهو تقليد للأصالة والإبداع، اتخذوا فحول النثر العربي أساتيد لهم يقتنون بطريقتهم ويستلهمون تراثهم الفني، فاحتفظت كتاباتهم الفنية بخصائص النثر والزينة والنوع، وجاءت مؤلفاتهم مليئة بأخبار كبار الكتاب ومؤلفاتهم، من أمثال عبدالحميد الكاتب وابن المقفع والجاحظ وأبن العميد والصاحب بن عباد وبديع الزمان وأبى إسحاق الصابي وأضرابهم من علماء الكتابة الفنية، وكما يقول المرحوم الدكتور مصطفى جواد ( فالصنعة الادبية إذا بلغت الذروة أشبهت المطبوع لأن الغرام بالفن يستمد من الملكة والطبع معاً وقد ثبت أن صدق الشعور وحده لا يكفي في دعوى روعة الأدب، كما ثبت بالفنون على اختلافها، أما التقليد فيها يبلغ أحياناً مرتبة المقلد، فلا يمكن التمييز بينهما إلا بشيء غير فني) (٥٥).

أما أهم الموضوعات التي كتبوا فيها كتابة فنية إلى جانب النثر العلمي هي:

- ١- تصوير الحوادث والوقائع.
- ٢- الرسائل السياسية.
- ٣- الرسائل الوصفية.
- ٤- السيرة الذاتية.
- ٥- الخطب والمواعظ.
- ٦- القصص والحكايات والطرائف.
- ٧- المناظرات.
- ٨- الاخوانيات.
- ٩- الاجازات العلمية .
- ١٠- المقامات
- ١١- الالغاز وغيرها.

### نماذج من نثر العصر

اولاً: المقامات

كتب عدد كبير من أدباء العصر في المقامات والمقامة، كما عرفناها عند الهمداني والحريري قصة قصيرة أو حكاية في ثوب منمق من اللفظ يتلاعب فيها الكاتب بمقدرته التعبيرية ويرصعها بضروب من البديع ، وكان يقصد بها ان تكون طرفة أو متعة للمجلس أو للسامعين، وتغير نظام المقامة بعض التغيير في العصر الوسيط ، فلم يتمسك الكتاب بأصولها التي نهجها الهمداني وأصلها الحريري، وتقوم تلك الاصول على أن يكون لها راوية وبطل واحد تتسلسل احداثه ومواقفه في كل مقامة، كل واحدة تستقل بحدث ويربط بينها الراوية فيستهل القول في مطلع كل همدانية بقوله حدثنا عيسى بن هشام قال، أو غيره في غيرها كالحارث بن همام في الحريرية وقد تخلصت

المقامة في هذا العصر من الرواية واكتفت بالحكاية، وحافظت على الشكل اللفظي المسجوع في الفقرات القصار، والبديع المتواتر، واستغل بعض الكتاب المقامة في التعبير المباشر عن الأحداث، أو التعبير عن مواجدهم الخاصة وهمومهم أو افراحهم في ثوب قصصي ، كذلك استغلت في الوعظ الديني وفي اللهو والإضحاك ورسم الصور الهزلية لشخصيات أو معالم في المجتمع ، واشتهر من كتاب المقامات جماعة منهم صلاح الدين الصفدي وعمر بن الوردي وشهاب الدين التلمساني وفتح الله بن علوان الكعبي<sup>(٥٦)</sup>.

فكتب الأديب فتح الله بن علوان الكعبي مقامة صور فيها مهاجمة الأتراك لحكومة حسين بن علي افراسياب في سنة ١٠٧٨هـ-٦٦٧م وما رافق ذلك من إجراءات قام بها حسين افراسياب والي البصرة لمواجهة الموقف، وكان الكاتب المذكور ممن شهد الحادث فألف هذا الأثر الفني، ملتزماً بأسلوب المقامة في السجع والازدواج والمقابلة، واستخدام الغريب والزخرفة البديعة ووشحها بآيات وتعايير من القرآن الكريم وضمها عدداً من الابيات والامثال وقسمها إلى مقدمة وعشرة فصول صغيرة وجعل حسين أفراسياب بطلا للقصة والكاتب نفسه راوية لأخباره وبذلك استكمل شروط المقامة ولكن مقامته واقعية بينما مقامات بديع الزمان الهمذاني والحريري خيالية ومن فصول هذه المقامة قوله: (قال المخبر بهذه الحكاية، وكنت في ذاك اليوم ممن سمع الندوة، وكان له بالمرتحلين أسوة. وفي اليوم الذي حق فيه الرحيل، وصح القيل وجادت السماء ، وصحت الأنواء ، حتى امتلئت بطون الطرق، بالسيل المتدفق ، وحين تحقق الوحي، وحشر الناس ضحى ، قلنا نفخ في الصور، وبعث من في القبور، وحل في الناس من شدة الوجل مايكل عن معابنته الطرف ، وعن بعضه الوصف، فبينما أنا واقف عند جسر بريهة إذ مر بهيم ، على ظهره هرم، وهو ينوء بنقله، وينوء بحمله، يقوم ويقعد، ويحل ويقعد، فتعجبت غاية العجب، وجعلت أتكرر بأبي العجب، وازدحم الناس على

الجسر، وطلعت المخدرات حسر، وظن أنه يوم الحشر، فبعداً للظالمين وخسئوا ولما جرت العبرة أجريت العبرة، لامرأة سقط ولدها من يدها وحل ، ثكل منه الرجل ولايعبر منه الا رجل، وكان معي رفيق ذو نجدة مطيع لما أعده، فأنقذها مع ولدها، وخرج آخذاً بيدها) (٥٧).

وتجري المقامة على هذا النسق، لوحات متعاقبة ، يبدي فيها الكاتب مقدرته الفنية، فيمتع السامعين من أهل المجلس، وهي قريبة مما كان يرتجله بطل مقامات الهمذاني ، ويلجأ اليه من خداع السامعين ببراعته الأدبية نظماً ونثراً ، والفارق أن بطل مقامات الهمذاني أو مقامات الحريري كان المبدع لتلك المقولات، أما في هذه المقامات فقد حل الكاتب نفسه محله، ولم يرتجل تلك المقامات على لسان أحد ، وكما لمسنا أن هذه المقامة تصدت لحدث من أحداث العصر وواقعة حربية شهدها الكاتب، وهي مرصعة بأنواع من الجناس والطباق والتشبيهات والصور البيانية والبديعية الأخرى، ومن المقامات ما يتصل بموضوع أو مناسبة، وقد قامت المقامة بدور الشعر في العصور السابقة، وبهذا شاركت المقامة بالأحداث الجارية، وكانت شكلاً من أشكال التعبير عنها، ولم تقتصر على المتعة الذهنية بين الخاصة، والتلمح أو التفكه وإبداء المقدره ومن هنا يمكن أن يقال أنها شاركت الرسالة، وقامت بدور المقالة في عصرنا .

## ٢- الرسائل الإخوانية:

تختصر الرسائل الإخوانية بمعالجة النواحي الوجدانية والصلات الإنسانية بين الأقارب والأحبة والأصدقاء لتطبيب الأشجان وتهدة الخواطر، فيعبر بها عن الشوق والعتب والتهنئة والثناء والعزاء وتبادل الرأي والشكوى والمفاكهة وما إلى ذلك، وهي لا تختلف عن الشعر في هذا الباب الا في الوزن والقافية وقد تميزت الرسائل الإخوانية في هذا العصر بالاسراف في عبارات المجاملة ونعوت التعظيم والتكريم للمرسل اليه والتواضع الشديد الذي لا تقبله أذواقنا في العصر الحاضر من الراسل ، حتى وإن كان مساوياً له في المرتبة أو المنزلة الاجتماعية وكتبت رسائل في الرثاء بين الأقارب والأصدقاء، ولا بد من الموافقة بين الموضوع واسلوب الرسالة والفاظها ومراعاة التناسب بين الموضوع واللفظ ومن ذلك ما كتبه الشيخ محي الدين بن حسين العاملي أحد أدياء العراق في القرن الحادي عشر الهجري إلى صديقه الاديب معتوق ابن شهاب الدين الموسوي الشاعر المعروف سنة (سنة عشر بعد المائة) والألف والرسالة قطعة مصنوعة فيها شيء من التعقيد تدل على ان كاتبها عمل فكرة فيها لتجميلها واختيار الفاظها وأغرابه في اسلوبه لبيان ثقافته وعلمه باللغة واعتمد السجع المزدوج وكثف من الاستعارات والتشبيهات ورسعها بالشعر وهي:

مالي سوى عفو يغطي على

عبد عصي مـ ولاه محقـوق

فهاك رقالم يكن رائقا

كم سامع بالرق معتوق

معاذا بالجناب الخطير، وملاذا بمشكاة الشهاب المنير، فلقد تتأيت فتأيت عن مالكي، وقلدت بكبار الذنوب، وعلقت بصغار الغيوب، ولست كمن يقول:

كيف تروق مقارضة الأحباب من أريق منه ماء الشباب ، وأنى يستحن إلى النديم من أضحى مستشن الأديم، لأنني في سابلة الغرام جذع البصيرة قارح الأقدام، أحفظ نشبي من الخلان، كما أحفظ نسبي من الاخوان، ولا كالحرون الذي لا يبرح بالمحصرة، والركض الهجين الذي لا يسرح إلا بالمهمزة والمحصرة، فأني كنت في إنشاء المكاتب سليك المقانب ، يدعوني ليل الهواجل، ويحدوني صوت الحيعل ، مع أني فهمت من الحواشي القديمة فرض الكتاب وعملت بالحواشي الجديدة عرض الجواب على أني لم أنس عهدكم فاحتاج إلى مذكر، ولاتغيرت بعدكم فأحتاج من مغير، وأنني لأتلدد كمدا بكم، واتبلد حزنا لكم، واتييه كالحيران ضل سبيله ، وأهيم كالحران غل غليله، وكأم فرخ شبيب عن الوكر، وراعي خيال يستطيف بلا فكر لكن لما رأيت ما أطلب حليف بعد عن الطالب، وما أخطب أليف صد عن الخاطب، يقصر الحليم عن أدناه، ويحسر العليم قبل ان يراه ، فلا غرو أن طاشت سهامي عن الغرض المقصود، وتهافت مرامي دون المورد المورد (\*) (٥٨).

(\*)

تتأيت : بعدت

فتأيت : وتتأنى تلبث وتخلف.

استحن : أي طلب الطرب.

الأديم: الجلد واستشن الأديم أخلق وبلى

القارح : الذي لم يجرب من الإبل وما استتم الخامسة

الحرون: الدابة الخاصة بذات الحافر

المحصرة : ما يتوكأ عليها أو يساق بها العصا

المهمزة: حديدة مدبية ينخس بها الفرس

الهوجل: المغارة البعيدة لاعلم فيها

تبلد : صار بليدا ضعيفا

الحران : العطشان يبست كبده

يستطيف : ينظر بالشيء وحوله ينظر اليه

### ثالثاً : الخطابة :

انحصرت خطب العصر الوسيط بشكل عام في المناسبات الدينية والأمور الوعظية والتوجيهية، وانتهى الدور الذي كانت تحتله الخطابة بالعصور الإسلامية الأولى ، التي كانت إحدى الدعائم التي اعتمد عليها الدين الجديد لنشره، واستخدمها الدعاة في العصر العباسي لنشر أفكارهم ودعوتهم، وقد كانت الخطابة في العصور الإسلامية الأولى وسيلة لبعث الحماسة وإثارة الهمم في نفوس المقاتلين لدحر قوى الشرك والروم وأعداء الأمة والدين، وقد اتسعت دائرتها وازدهر أسلوبها، وحينما هدأت الحوال السياسية وانتهت أعمال الفتوح برزت الحاجة إلى الخطب الوعظية لتهديب النفس عن الإغراق في الملذات ، وتوعية الناس في علوم الدين. وفي العصر الوسيط انتهكت الحرمات واستبيحت الكرامات وتعرضت البلاد إلى غزو ثقافي وجهل مطبق، فعطلت الخطابة عن دورها الأصيل، وركزت على الجوانب الأخلاقية والتربوية تلقى في أيام الجمع والأعياد وفي أيام رمضان وبعض المناسبات الاجتماعية والدينية، وكان غرضها توجيهياً بحتاً، ومن ذلك خطبة في يوم الجمعة القاها العلامة والأديب نور الدين الجزائري أحد ادباء جنوب العارق في القرن الثامن عشر الميلادي .

( الحمد لله مدبر الأمور، ومقدر الأزمنة والدهور، الذي خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور، سبحت له الأفلاك في السماء، والحيثان في لجج الماء، والخضراء وما أظلت ، والغبراء وما أقلت، والليل في غسقه، والصبح في فلقه، والسحاب في برقه ورعده ، والبحر في جزره ومده، وأن ما من شيء إلا يسبح بحمده، ونشهد أن لا اله الا الله مالك الملك، ومجري الفلك، الحي القيوم، القديم الديوم، ونشهد ان محمداً بعينه وحببيه ورسوله ونجيبه ، أرسله للخلق بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فرض على العباد طاعته، وقبل فيهم شفاعته، صلى الله عليه وآله الكرماء، ماسكنت الأرض ودارت السماء، عباد الله عليكم بتقوى الله ، الذي حباكم

بالهدى، ولم يترككم سدى ، وأوضح لكم المحجة، وأتم عليكم الحجة، فاجعلوا الحق لكم دليلاً ، ولا تشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً...)(<sup>٥٩</sup>).

الخصائص الفنية والموضوعية للنثر في العصر الوسيط:

- ١- اتجه الكتاب إلى مزيد من التزييق باستخدام البديع استخداماً مسرفاً وتركيزاً على التورية والتجنيس، وكان السجع إطاراً لفظياً سائداً لمعظم فنون الكتابة، وكان بعضهم يجيده ويتكلفه آخرون ويسيوون استخدامه فيسقطون سقطات مثينة.
- ٢- دخلت الكتابة تعبيرات عامية وألفاظ دارجة أو دخيلة تركية أو فارسية أو مغولية أو أوربية، فضعف التأليف وكثرت الأخطاء النحوية، والتراكيب اللفظية الواهية، وأخرجها التصنع الشديد لالوان البديع ومصطلحات العلوم الاجنبية والتعابير التي لا تتسجم مع العربية ومع الذوق من اسلوب النثر الفني المقبول.
- ٣- اهتم الكتاب بالاقْتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف، والشعر القديم والمثل السائر والنوادر والحكايات، وتفننوا في هذا الاقتباس بين تضمين الكلام بنصه او لفظه او الاشارة إلى معانيه او ايراد بعض لفظه او التلميح له.
- ٤- كانت الرسائل عند اشهر كتاب العصر الوسيط تؤلف من الوان البديع واصطلاحات العلوم والفنون، وقد اصبحت هذه الاشياء تُلصق وتُلَفَّق تَلْفِيقاً فليس هناك كاتب ممتاز بهذا العصر الا وهو يسعالي جلب هذه الفنون في نثره يعتسفها اعتسافاً ويقتسرها اقتساراً وتمضي الرسائل على هذا النمط من التصنع لمصطلحات النحو، وكان الكاتب يريد أن يسلك

- كل ما يعرفه من هذه المصطلحات في كتابه ونعجب نحن الان من هذا التصنع الثقيل ولكنه كان بدعة العصور الوسطى.
- ٥- كان معظم كتاب العصر مقلدين تقليداً شديداً للتصنع والتعقيد ولم يستطيعوا ان يتحدثوا من جديد سوى أن يغرقوا إلى أذانهم في هذه الأشكال البديعية والعلمية.
- ٦- ان البديع لم يعد يؤدي عندهم معنى التحسين والزينة في صورة طبيعية فقد خرجوا به عن طاقته التي كنا نألفها في العصور السابقة، وأصبح عندهم تلفيقاً وتزويقاً، فالكاتب يتصيد في رسالته تورية أو جناس معكوس او اصطلاحاً علمياً ليذل على مهارته، ومما لا يرب فيه أن ذلك كان يفتن الادباء حينئذٍ ، وهي فتنة جعلت النثر العربي عملاً لفظياً يعنى بالزخارف والتتميق لا بالمعاني ، ولا ما يتصل بالمعاني من فكر دقيق، وما إن نصل إلى نهاية هذا العصر حتى نحس بان الاساليب في النثر قد تجمدت.
- ٧- افتقد العصر روح التجديد والابتكار، وكان الكتاب فيه يعيشون على التقليد واجترار الاعمال السابقة فإن هم تركوا هذا الاجترار والتقليد لم نكد نجد لهم شيئاً قيماً يمكن ان تعنى به في مجال الكتابة الفنية المتميزة بالفيض العاطفي، وهكذا فقد كانت طاقة العصر محدودة في نطاقه فجمدت الكتابة الفنية في العراق جموداً بل قل تحجرت تحجراً بعد إذ أجدبت الحياة الفنية (٦٠).

## الخاتمة

على الرغم مما ألمَّ في بلاد الرافدين من مصائب و كوارث بعد الاحتلال المغولي وما تلاه من إستيلاءات واحتلالات أجنبية أخرى طوال سبعة قرون وما رافق ذلك من إهمال و امتهان وتخريب لمصالح البلاد وحضارتها وثقافتها ولغتها ... كانت اللغة العربية ضاربة أطناها في بقاعها راسخة في نفوس شعبيها واستمرت الجهود المخلصة الشعبية و الجماهيرية في المحافظة على البقية الباقية من التراث العربي الإسلامي في مدن العراق الأخرى في أروق المساجد ودور العبادة والبيئات القبلية و الأجماعية المتقدمة في المجتمع تستغل الفرص وتتشط في غفلات العدو وانشغاله في صراعاته على السلطة والنفوذ ، لكي تحي تراثها وترعى مصالحها ووجودها ولغاتها وثقافتها في أتون تلك الظروف البالغة الصعوبة و العقبات المتوالية ، أستمر الأدب يسير بخطى وثيدة ضعيفتاً أثار المبدعين السابقين في عصور الازدهار الحضاري و الأدبي فايدع شعرا ونثرا يوازي ما أبدع الأوائل من الشعراء و الكتاب مقتديابهم سالكاً سبلهم في الأغراض و الأساليب مهما قيل في ضعفه وخموله عن إدراك شأوهم فهو تقليد واع لا بداعهم وسير على طرائقهم.

فالصفة الأدبية إذا بلغت الذروة أشبهت المطبوع لأن الغرام بالفن يستمد من الملكة والطبع معاً ، وقد ثبت أن صدق الشعور وحدة لا يكفى في دعوى روعة الأدب ، كما ثبت في الفنون على اختلافها أن التقليد فيها يبلغ مرتبه المقلد فلا يمكن التمييز بينهما الا بشئ غير فني<sup>(١١)</sup>.

وخلال هذه الحقبة ظهر عشرات من الشعراء و الكتاب جاء أدبهم في أغلبه يضاهي أدب القدماء في خصائصه وجماله وبلاغته وروعته وفي ميدان الشعر نظموا في الأغراض كافة وفي النثر كانت باعهم طويلة ، وكان المذهبان الفنيان مذهب أهل الطبع ومذهب أصل الصنعة و البديع واضحين كل الوضوح من شعرهم ونثرهم ، وأذا

الدكتور عبد الرحمن كريم اللامي

بمضات من الادب العراقي في العصر الوسيط ١٢٥٨-١٨٠٠م - ٦٥٦-١٢٠٠هـ

---

مانتسرب الضعف والنكول إلى قرائح أدباء تلك العصور فذلك أن هؤلاء الأدباء وجدوا في بيئات الانحطاط والتمحل والاضحلال الحضاري والأدبي التي صبغت بها حياة كل العرب آنذاك فظهرت أشعار وكتابات لعدد منهم تميزت بالضعف والجمود والإسفاف ودخلت العامية بين ثناياها لفقدان الرعاية الكافية للعلم و الأدب ... ويكن يبقى الطابع العام للحياة الأدبية في ذلك العصر هو طابع التراث العربي الأصيل الذي يتسم بالخصائص والميزات الفنية السليمة في الصياغة الأسلوب والفصاحة والنظم .

والله ولي التوفيق

### الهوامش

- ١- التحفة النبهانية: ص ٣٥٢-٣٥٥ ، اربعة قرون من تاريخ العراق ، ص١٨، الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر ، ص ١٦ .
- ٢- مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، ص ٥٦ .
- ٣- شعر صفي الدين الحلبي، ص ٣٧ .
- ٤- الادب العراقي في العصر المغولي، ص ٣٢٧ .
- ٥- تاريخ الادب العربي في العراق : ج١، ص ٣٢٣ ، ٣٣١ .
- ٦- الادب في العصر العثماني: ص ٤٦٩ .
- ٧- نهضة العراق الادبية : ص ١٠ .
- ٨- الادب العراقي في العصر المغولي : ص ٣٢٨ .
- ٩- شعر صفي الدين الحلبي: ص ٢٦٨ . شذرات الذهب: م٦ ، ص ١٢١ .
- ١٠- نهضة العراق الادبية: ص ١٥ ، الادب في العصر العثماني .
- ١١- انظر: الادب العراقي في العصر المغولي : ص ٣١٢-٣٢٦ ، تاريخ العراق بين احتلالين : ج٥ : ص ٤٤ ÷ تاريخ العراق في اربعة قرون: ص ١٠٤ ، نهضة العراق الادبية : ص ١٦ .
- ١٢- انظر: الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر: ص ٩٨ ، ٢٧٨ ، ٣١٤ ، مقدمة ديوان صالح التميمي، ص ٣ ، مطالعات في الشعر المملوكي ، ص ٨١-٨٤ ، ٣٠٨-٣٢٠ .
- ١٣- شعر صفي الدين الحلبي : ص ٢٦٨-٢٧٢ ، ديوانه : ص ٦٨٥ .
- ١٤- المدائح النبوية : ص ١٧ ، ١٩٦ ، مطالعات في الشعر المملوكي ص ٢٦١ .
- ١٥- مطالعات في الشعر المملوكي ص ٢٦٤-٢٧٥ .

- ١٦- ديوان علي بن خلف ورقة ٩١.
- ١٧- ديوان ابي معتوق ص ٦.
- ١٨- المدائح النبوية ص ١٩٦.
- ١٩- ديوان ابي معتوق ص ٤٣.
- ٢٠- المصدر نفسه ص ٦٥.
- ٢١- السرية المرضية ورقة ٣٥.
- ٢٢- ديوان ابي معتوق ص ١٩٨.
- ٢٣- شرح ديوان المتنبي ج ١ ص ٨٨.
- ٢٤- ديوان صفي الدين الحلي ص ٩٥.
- ٢٥- سلافة العصر : ص ٤٩٦.
- ٢٦- الروضتين : ج ٢ ص ٢٠٦.
- ٢٧- النجوم الزاهرة: ج ٧ ص ٥١.
- ٢٨- شذرات الذهب : ج ٥ ص ٢٧٢.
- ٢٩- شهداء الفضيلة ص ٢٩٣-٢٩٦.
- ٣٠- ديوان هاشم بن حردان الدور في الكعبي ص ٤٨-٥٢.
- ٣١- ديوان صفي الدين الحلي ص ٣٢٨، ٣٣٥.
- ٣٢- ديوان ابي معتوق ص ٢١٧.
- ٣٣- الكشكول ج ٣ ص ٥٠٤.
- ٣٤- ديوان صفي الدين الحلي ص ٣٩٦.
- ٣٥- ديوان ابي معتوق ص ١٥٢.
- ٣٦- ديوان علي بن خلف ورقة ٣٦.
- ٣٧- زاد المسافر ص ٤.

- ٣٨- ديوان صفي الدين الحلبي ص ٥٥٤.
- ٣٩- ديوان صفي الدين الحلبي ص ٩٩.
- ٤٠- ديوان ابي معتوق ص ٢٢٥.
- ٤١- ديوان ابي معتوق ص ٢٢٥.
- ٤٢- نفحة الريحانه ج١، ص ١٦٥.
- ٤٣- ديوان علي بن خلف : ورقة ٧٢.
- ٤٤- الانوار النعمانية: ج٣ ص ١٧٠.
- ٤٥- ديوان ابي معتوق ص ٢٢٤.
- ٤٦- سلافه العصر : ص ٥٥٤.
- ٤٧- الكشكول: ج٣ ص ٤٥٩.
- ٤٨- قلائد الغيد ص ٦.
- ٤٩- ديوان ابي معتوق.
- ٥٠- ادب الطف : ج٥ ص ١٣٩.
- ٥١- مطالعات في الشعر المملوكي : ص ١٦٧ ، الحالي والعاقل ص ٨٣.
- ٥٢- انظر: الشعر السياسي العراقي : ص ٢٧٦ ، في ادب العصور المتأخرة ص ٢٣-٤٣.
- ٥٣- انظر: الشعر السياسي العراقي : ص ٢٧٨-٢٨١، في ادب العصور المتأخرة ص ٤٥-٦٩.
- ٥٤- الادب العربي في العراق : ج١ ص ٢٦٧ ، ٢٧٦ ، اساليب المقالة وتطورها في الادب العراقي الحديث ص ٤٢.
- ٥٥- الادب العراقي في العصر المغولي، مجلة المجمع العلمي العراقي م/٣ ج٢ ص ٣٢٧ عام ١٩٥٥.

- ٥٦- انظر : الادب العربي في العصر العباسي ص ٣٠٠.
- ٥٧- زاد المسافر ص ٢١-٢٢.
- ٥٨- الحالي والعاطل ص ٩٢.
- ٥٩- فروق اللغات : ص ٢٩٨.
- ٦٠- انظر : اساليب المقالة وتطورها في الادب العراقي الحديث : ص ٤٢ ،  
البابليات : المقدمة ، تاريخ الادب العربي في العراق : ج ٢، ص ١٨.
- ٦١- مجلة المجمع العلمي العراقي م ٣ ح ٢ / ١٩٥٥ ص ٣١٠.

### مصادر البحث

- ١- أدب الطف : عبد الحسين احمد الامبني ط بيروت / دار التزان الاسلامي
- ٢- الأدب العراقي في العصر المغولي : د. مصطفى جواد ، مجلة المجتمع العلمي العراقي ح ٣ ح ٢ / ١٩٥٥ .
- ٣- الأدب في العصر العثماني : د. علي احمد الزبيدي ، مجلة كلية الاداب ع ٢٦ / ١٩٧٩ م .
- ٤- أربع قرون من تاريخ العراق : استيفين هملي لوناك ترجمة جعفر الخياط ط ٤ / بغداد د ١٩٦٨ .
- ٥- أساليب المقالة وتطورها في الأدب العراقي الحديث و الصحافة العراقية : د. منير بكر ، بغداد / ١٩٧٦ .
- ٦- الأنوار النعمانية : نعمه الله عبد الله الجزائري /بيروت ١٩٩٢ .
- ٧- البابليات : محمد علي اليعقوبي ، النجف ١٩٥١ .
- ٨- تاريخ الأدب العربي في العراق : عباس العزاوي ، ط ٥ ، بغداد ١٩٥٦ .
- ٩- تاريخ العراق بين احتلاين : عباس العزاوي ح ٥ ، بغداد ١٩٥٦ .
- ١٠- التحفه النبهاية في تاريخ الجزيرة العربية ( ألبصره ) محمد بن خليفة النبهاي الطائي القايره . ١٩٨٠ م .
- ١١- حالة لشعر في القرن السابع الهجري : نوري شاكر الأوسي مجله الإستاد عددا سنه ١٩٧٨ .
- ١٢- الحالي و العاقل : د. عبد الرزاق محي الدين ، النجف / ١٩٧١ .
- ١٣- ديوان علي بن حلف الحويزي / مخطوط في دار المخطوطات العراقية رقم ٥٢٢ .

- ١٤- ديوان صالح التميمي : صالح بن درويش بن زيني التميمي ، النجف ، ١٩٥٠ .
- ١٥- ديوان صفى الدين الحالي : صفى الدين عبد العزيز بن سرايا ، بيروت .
- ١٦- ديوان أبي معتوق الموسوي : ت بعدد الشرتوني اللبناني بيروت : ١٩٨٥م .
- ١٧- ديوان هاشم الكعبي ، ت محمد حسن الطالقاني نجف ١٣٨٥ هـ .
- ١٨- الروضتين في أختيار الدولتين : عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي القاهرة ١٣٨٨ هـ .
١٩. زاد المسافر و لهنة المقيم و الحاضر : فتح الله بن علوان الكعبي ت عبد المجيد البصري بيروت ١٩٢٠ .
- ٢٠- سلاف العصر في محاسن أصل الشعر : أين معصوم المدني ، ١٩٦٣
- ٢١- السيرة المرضية في شرح الفرضية : ابن رحمة الحويزي مخطوط مصور في حوزتي .
- ٢٢- شذرات الذهب : ابن العماد الحنبلي ، القاهرة ١٣٥١ هـ .
- ٢٣ - ديوان المتنبّي ، ج ١ ، ط-بغداد .
- ٢٤- الشعر اسياسي العراقي في القرن التاسع عشر ابراهيم الوائلي ، بغداد ١٩٧٨م
- ٢٥- شعر صفى الدين الحلبي : د. جواد احمد علوش ، بغداد ١٩٥٩ .
- ٢٦- شهداء الفضيلة محمد هادي الاميني رشيد ، النجف ، ١٩٣٦ .
- ٢٧- في أدب العصور المتأخر : د. ناظم رشيد : بغداد ١٩٨٥ .
- ٢٨- فروق اللغات : نور الدين بن نعمة الجزائري ، النجف ١٣٨٠هـ
- ٢٩- قلائد الغيد : علي ابن باليل الدورقي : ط قم ١٣٩٩ هـ .
- ٣٠- الكشكول : يوسف البحراني ، كربلاء ، ١٩٦١ .

- ٣١- المدائح النبويه : د.زكي مبارك ، القاهرة ١٩٦٧ .
- ٣٢- مطالعات في الشعر المملوكي و العثماني : د. بكر شيخ امين- بيروت ١٩٨٠ .
- ٣٣- النجوم الزاهرة : ابن تغراي بردي ح ٧ ، القاهرة ١٩٣٦ .
- ٣٤- نفحه الريحانه و رشحة طلاء الحانه : محمد امين المحببي ت عبد الفناح الحلو : القاهرة ١٩٦٨ .
- ٣٥- نهضة العراق الادبيه في القرن التاسع عشر ، د. محمد مهدي البعير .
- ٣٦- مجلهاالاستاذ عددا سنه ١٩٧٨ م .
- ٣٧- مجلة كلية الاداب عدد سنه ١٩٧٩م
- ٣٨- مجلة المجمع العلمي العراقي م ٣ح ٢ سنه ١٩٥٥ م .